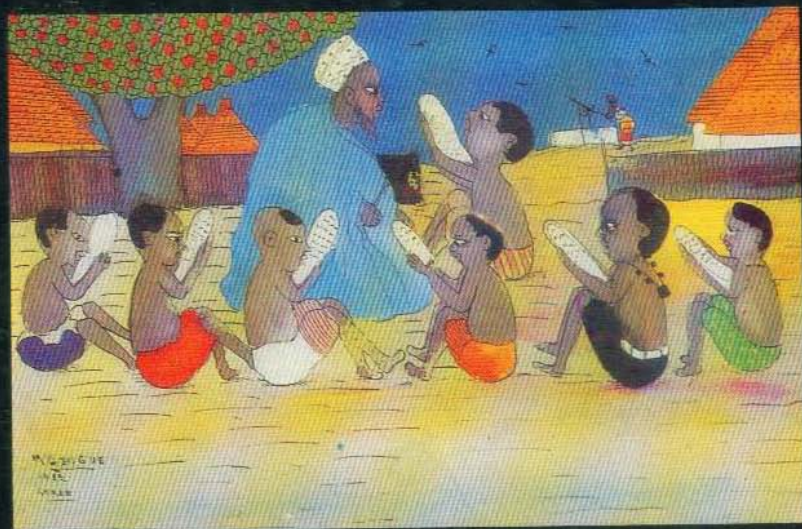


وول سوينكا

سنوات الطفولة

الدي



ترجمة سمير عبد ربه

مكتبة مدبولي

الرواية التي حاز المؤلف بموجبها
على جائزة نوبل ١٩١٦

B.HAMDAN

« وول سوينكا »

« أكية .. سنوات الطفولة »

الرواية التي حاز بموجبها على جائزة نوبل ١٩٨٦

ترجمة وتقديم / سمير عبدا ربه

مقدمة

بقلم المترجم

- يضم الأدب الأفريقي كثيراً من الأعمال الجيدة التي ينبغى التوقف عندها إذ لا تقل أهمية وإبداعاً عن الأدب الغربي الذي تزخر به مكتباتنا العربية وبإستثناء بعض المحاولات الجادة والقليلة التي قام بها كتابنا وأدباؤنا فى التعريف بهذا الأدب وهؤلاء المبدعين فإننا نعانى نقصاً فى هذا الصدد لا يتناسب مع ما يحتويه الأدب الأفريقي من أعمال عظيمة فى شتى مجالات الإبداع (القصة - الرواية - الشعر - المسرح) إذ أن اختلاف الثقافات قد ساهم بشكل مباشر فى إبداعات تلك القارة السوداء إلى جانب الإستعمار الأوروبى الذى لا يخلو أى عمل أدبى من الإشارة إليه كما أن التراث والبيئة والطقوس الخاصة التى يتميز بها ذلك العالم الأفريقي الأسود قد إنعكست على الفنون والآداب وأكسبتها مذاقاً خاصاً ونستطيع أن نرى ذلك بوضوح فى معظم الأدب الأفريقي إن لم يكن جميعه .

يعد سوينكا أهم وأبرز كاتب أفريقي .. وُلد عام ١٩٣٤ فى مدينة "أبيوكوتا" بجنوب نيجيريا قبل إندلاع الحرب العالمية الثانية التى أشاعت فى نفسه وهو صبى كثيراً من الأفكار والمشاعر إنعكست فى أعماله فيما بعد وبخاصة فى هذه الرواية الهامة (أكية .. سنوات الطفولة) وهى عبارة عن سيرة ذاتية مبهجة كتبها سوينكا بأسلوب أخذ ورشيق وتحكى قصة طفولته

وصباه قبل وأثناء الحرب العالمية الثانية فى مدينة " أكيه " بغرب نيچيريا بحيث يصعب علي من كانوا فى عمره أن يكبروا دون أن يتذكروا كل شئ .. أولئك الذين شاء لهم أن ينشأوا فى تلك البيئة وذلك المكان متعدد الثقافات .

إلتحق " وول سوينكا " بمدرسة " أبادان " الحكومية وأتم تعليمه بجامعة " أبادان " ومع بداية التحاقه بالجامعة أذيعت له أول قصة فى الإذاعة عام ١٩٥١ فكان ذلك حدثاً مثيراً بالنسبة له .

يعمل الآن أستاذاً للأدب المقارن بجامعة " آيف " بنيچيريا وقد حصل على الدكتوراه الفخرية فى الأدب من جامعة " بيل " وكذلك العديد من الجوائز الأدبية كان آخرها جائزة نوبل العالمية عام ١٩٨٦ .

- " مبدع وهنّان شامل " !!

المتتبع لأعمال سوينكا المتنوعة لابد أن يقف كثيراً أمام سؤال محير بعض الشئ : هل هو كاتب مسرحى أم روائى أم أنه شاعر ؟

والإجابة على هذا السؤال هى كل ذلك معاً بالإضافة إلى أنه ناقد وممثل ومخرج إذاعى ومسرحى وكوميديان ومدرس جامعى ومصمم أقنعة فكان لهذه التركيبة الفنية الثرية والمتنوعة أثرها فى أسلوبه الأدبى .

فى فترة السجن كتب كثيراً من القصائد والمخطوطات التى تناول فيها

تجربته والتي تجسدت فى عمله الشهير (مات هذا الرجل) الذى كتب فيه عبارته الشهيرة : (يموت الرجل فى كل إنسان يلتزم الصمت فى وجه الطغيان)

بدأ " وول سوينكا " إنتاجه عام ١٩٦٠ برواية (رقصة الغابات) تلاها فى عام ١٩٦٥ برواية (المفسرون) التى تعرض فيها لمشاكل المثقفين وقضاياهم فى عالم أفريقى متميز بإحدى المدن النيجيرية من خلال علاقة قوية تربط بين أربعة من الأصدقاء : (مهندس - صحفى - فنان تشكىلى - مدرس جامعة) كتب أيضاً فى عام ١٩٧٣ (موسم الفوضى) وتبعها بكتابه (داخل القبو) ، (الأسد والجوهره) ، (العرق القوى) ، (ثورة كونجى) ، (الموت) ، (أناس المستنقع) ، (العمالقة) ، (سنوات الحزن) ، (محاكاة الأخ جيرو) ، (أتباع باكوس) وأوبرا (ونيوس) ، (مكوك فى السرداب)

أصدر سوينكا ديوانين من الشعر أولهما عام ١٩٦٧ والآخر عام ١٩٦٩ وتعد قصيدته « محادثة تليفونية » من أشهر قصائده وفى هذا الصدد أود أن أذكر أن كل أعماله مكتوبة بالإنجليزية فيما عدا معظم أعماله الشعرية التى كتبها بلغته الأصلية وهى لغة اليورويا .

-المسرح عند سوينكا .

نتوقف قليلا عندالسؤال التالى : ماذا عن مشاريعك المستقبلية ؟

أجاب سوينكا قائلاً : من الأفضل أن نسرع بتشغيل المسرح بكل ما لدينا من حب وعطاء وكم أتمنى أن أتفرغ طوال حياتي للمسرح فأنا أستطيع بالمسرح أن أحقق وجودى إلى أقصى درجة .

إن هذه الإجابة كافية تماماً لتوضيح مدى عشق سوينكا للمسرح .

إن إعجاب سوينكا بالمسرح يكمن فى حرите الكاملة فى التعامل مع أدواته غير أن هدف المسرح - كما يقول - لا يعنيه أى أنه ليس ملزماً بالتعليم والتنوير وبت الأفكار فى عقول المشاهدين لكنه فى نفس الوقت يضع إلتزاماً لنفسه أمام الجمهور وهو ألا يغادروا المسرح قبل أن يكون قد قال شيئاً .

من أهم أعماله المسرحية :

- (الأسد والجمهرة) .. أولى مسرحياته .

- (رقصة الغابات) .. كتبها عام ١٩٦٠ وتناول فيها إحتفالات الإستقلال وعلاقة نيجيريا بماضيها وقد نال عنها جائزة وعند عرضها على المسرح لاقت نجاحاً كبيراً .

- (العشيرة القوية) .. مسرحية من فصل واحد وهى أحب الأعمال إلى

نفسه

- (الطريق) .. إستخدم فى كتابتها دلالة القناع .

- (محاكمة الأخ جيرو) .. مسرحية كوميدية من فصل واحد تحكى حكاية خفيفة عن الشر الإنسانى وهنا أود أن أشير إلى أن الكوميديات تعد بالنسبة لكاتبنا أصعب الأعمال .

- دوافع الإبداع عند سوينكا :

بقراءة أعمال سوينكا المسرحية أو الروائية أو الشعرية نستطيع أن نتلمس فكرة بعينها تستولى عليه وهى أن البشر فى كل مكان بالعالم متوحشون يدمرون بعضهم البعض أو كما قال هونفسه : (إن الجنس البشرى ببساطة جنس متوحش)

ربما كانت هذه بعض الأفكار والمشاعر التى أشرنا لها فى البداية والتى إنعكست على روحه حين كان صبيماً أثناء الحرب العالمية الثانية ونستطيع أن نلمسها بوضوح فى إبداعاته المختلفة إلى جانب البشاعة المستترة والشرور التى يرى سوينكا أنها سمة من سمات العالم الأوروبى .

وكما كان الألم مثيراً للإبداع الفنى عند " ديستوفيسكى " والضمير الإنسانى المعذب عند : تولستوى " وكانت عقدة الإضطهاد عند " فرانز كافكا " فإن التوحش والشرور والبشاعة هى دوافع الإبداع عند

سوينكا الذى لا يفكر فى المتلقى حين يكتب ولا يبالى بالجمهور حين يؤلف عملاً مسرحياً إذ لا يهمه ما إذا كان ذلك الجمهور من نيچيريا أم من أى بقعة فى العالم .. إنه يكتب وفى ذهنه أن القاعة مليئة بالناس وأن هؤلاء الناس يحسون ويشعرون وأن الكاتب لا يمكن أن يكتب عن لا شئ .

هكذا يكتب " وول سوينكا " داساً فكرته بين طيات أعماله وعليك أن تكتشف هذه الفكرة أو تلك والتي فى معظم الأحوال لا تخرج عن كونها فكرة إنسانية شاملة وهكذا شأن الكاتب المبدع الذى يتجاوز نفسه وبيئته إلى رؤية أبعد وإلى أفاق أكثر شمولاً .

سمير عبد ربه

(١)

- أكية .. أرض متموجة ومترامية الأطراف وهناك عند مرتفعات (أوتوكو) كان إصطبل القس قريباً من رأس التل ثم ذلك الطريق المتعرج الصاعد من سوق صاخب إلى سوق آخر يطل على أكثر مداخل الدير سرية.

كانت كنيسة القديس بطرس التي يؤدون فيها صلوات الصباح والمساء باللغة الإنجليزية وكانت موسيقى الأرغن تدوى فى تلك الأمسيات .

كان القس متبلد الحس مثل بيته المربع الشكل .. ذلك البيت المشوه بشبابيك ذات إطار خشبى أسود حيث يحل ضيوف الإِسبوع للإقامة وكان فناء الأساقفة فى أحد الأدوار ومن الطابق العلوى كان من اليسير رؤية قمة (أوتوكو) غير أن رؤية البوابة كانت متعذرة بعض الشيء .

كانت فصول المدرسة الابتدائية فارغة فى الليل يحيط بها بستان الفاكهة حيث كنا نختبئ وكانت الخبيزة طازجة والهواء مشبعاً برائحة أوراق الليمون والجوافة والمانجو وممتزجاً برائحة أشجار (البوم) وإقرانات المطر المتساقط على الأوراق الظليلة الواسعة الإنتشار .. لكن شجرة الأناناس فوق الأكاسيا وغابات البامبو دائماً ما كانت تجعلنا غاضبين إذ لم تكن تصلح إلا سكناً مثالياً للشعابين إذا ما كان للشعابين ثمة إختيار .

كان بستان الفاكهة فى الجانب الأيسر لبيت القس وملعب المدرسة بما فيه

من نباتات وفاكهة مكانين لرجال الدين ودروس الكنيسة وتلك المواعظ المملة وكان نبات (كاناليلى) بأوراقه المزركشة باللون الأبيض والأحمر مُبَقَعاً ببقع بيضاء كثيرة ولم يكن أحد يستطيع أن يفسر وجود هذه البقع ولما كان المسيح مُسَمَّراً إلى الصليب وجراحه تتدفق بالدم فقد قيل بإنها ربما كانت نوعاً من رجم الخطايا فى دم المسيح .

لكن شجرة الرمان كانت هى سيدة البستان .. لم تكن تنمو كثيراً من بنور الكنيسة بقدر ما كانت تراتيل أيام الأحاد تساعد فى نموها .. كان البستاني بيده المعروفة ووجهه المألوف لدينا هو الذى يعتنى بشجرة الرمان مرة واحدة كل حين ولذلك فقد كان إنتاجها قليلا .

قال البستاني : إنها تنمو هنا فقط .. هنا فقط تنمو شجرة الرمان !!

كان من الغريب أن تنمو فى هذه التربة لكن مطراناً سابقاً من الرجال البيض جاء معه بالبنور وزرعها فى البستان .

تساءلنا عما إذا كان تفاحاً ..

ضحك وأجاب بالنفى ثم أضاف : وهل يوجد التفاح فى تربة الرجل

الأسود ؟

قبل الفجر بقليل كان تغريد الطيور يملأ البيت وكانت أسراب من الخفاش تسكن شجرة التين التى كانت تنتشر بنورها فوق الأحجار والخضرة والممرات

والشجيرات .

كنت أستلقى فوق الخضرة أمام منزلنا متطلعاً بوجهي إلى السماء ورأسى باتجاه فناء الأساقفة بينما قدمي إلى السياج الداخلية لبيت القس وكنت أرى من تلك الفضاءات المنخفضة نصف مدرسة البنات الإنجليزية والنصف الآخر من فناء الأساقفة . . كانت المنطقة المنخفضة تحتوى على فصول الصغار وحجرات نوم الطلبة وحديقة فاكهة صغيرة من الجواقة والخيزران وبعض النباتات الأرضية وفي موسم الأمطار كانت توجد دائماً تلك القواقع بأشكالها المختلفة وفي المنخفض الآخر حيث كنا ننام من وقت لآخر كان بائع الكتب وهو رجل ضعيف متغضن له زوجة هادئة وجميلة . . كنا نستمتع ببعض التأملات فى ذلك المكان الفسيح الذى يقطع الطريق المؤدى إلى (إيبارا) وكان هو المكان الوحيد فى بيت القس الذى توجد به بئر للمياه فكان فى موسم الجفاف مزدحماً بالناس كما كانت أشجار جوز الهند تنمو فى ذلك المكان .

كان الأسقف (أجايى جروثر) يظهر أحياناً من بين مجموعة نباتات الزينة بزيه الرسمى ووجهه الخرافى وعينيه الجاحظتين وهو يحدقُ فينا .

قال المدرس : منذ أن عاش فى بيت الأساقفة وهو يحدقُ من خلال النباتات المتسلقة .

كلما مررت ببيت الأساقفة فى مهمة إلى عمى الكبرى (مسز لىجاو) عرفت أنه لم يعد سوى منزلاً لبنات المدرسة وملعباً إضافياً لنا أثناء الأجازات
جلس الأسقف بهدوء على مدرج خشبى عند المدخل وكانت ملابسه مثل
النبات المعترش .. تحركت بالقرب منه وحين رمقنى بعينه تعجبت لتلك
الصورة التى يبدو عليها بردائه الكهنوتى وأيضاً لتلك السلسلة الفضية التى
تصل حتى الجيب .

ابتسم إبتسامة عريضة ثم قال : إقترب أكثر .. سأجعلك ترى

كانت السلسلة تنتهى بساعة للجيب تومض بالفضة وحين تحركت باتجاه
الشرفة رسم الأسقف على السلسلة حلقة دائرية كاملة وضغط على مفتاح
الساعة فظهرت إلى جانب الزجاج سحابة عميقة ملأت الفضاء وعندئذ طرف
بعين واحدة فسقطت السحابة من وجهه إلى تجويف الساعة ثم طرف بالعين
الأخرى فسقطت سحابة أخرى إلى الساعة وأعاد غلق الغطاء فجاء وهو
يومي برأسه الصلعاء .. إختفت أسنانه وشد جلده حتى تكشفت العظام ثم
وقف وخبأ الساعة فى جيب المعطف .. تحرك خطوة ناحيتى فهربت باتجاه
المنزل .

- كان بيت الأساقفة أكثر جمالاً وروعة من بيت القس .. كانت تحيطه
الأحجار البيضاء النظيفة والزهور الجميلة وكانت الصخور المظلمة منتشرة فى

كل مكان تزيد السحب من فتنتها وروعتها وعند هبوب العواصف القوية كانت أوراق الشجر تروح وتجئ مع الرياح حتى تتدلى فوق بيت الأساقفة .

كذلك كان واضحاً أن الأساقفة لا يعملون على تحدى الأرواح مثلما كان القساوسة يفعلون وكانت رؤية الأسقف (أجايى جروثر) متجولاً خارج بيت القس تخيفنى

أشارت أمى إلينا قائلة : لماذا تجلسون هنا ؟ .. أليس هذا وقت حمام المساء ؟

ثم نادى بصوت عالٍ : (لاوانل)

أجابت الخالة (لاوانل) : " ما "

كنت أسأل كثيراً عن الخال (سانيا) وعن الأشباح والأسقف (جروثر)

قالت أمى : ألن تكف عن الأسئلة ؟

دخلت (لاوانل) قائلة : هيا إلى الحمام يا أطفال .

لكننى أجبت : لا .. إنتظرى أيتها الخالة

أمسكت بذراع كل منا وأنا أصرخ : هل كان الأسقف (جروثر) شبحاً ؟

ضحكت أمى قائلة : إنه لا يتوقف عن الأسئلة .

كان (چى - چى) ابن عم أمى مسافراً فى إحدى جولاته الكثيرة التى يقوم بها ركباً أو سيراً على قدميه من أجل الدعوة إلى كلمة الله وليبقى على إتصال دائم بكل فروع الأبرشية .. كانوا يستقبلونه فى كل مكان ولم يكن ثمة شئ يمنعهم من القيام بمواعظه

تلاشى بستان الفاكهة وقضى الماعز على صفوف الليمون الذى كانت أعشابه علاجاً للحمى والصداع .. كنا نتناول قطعة من الإسبرين أو قطعتين مع فنجان من الشاي بعشب الليمون الساخن قبل النوم كعلاج وكانت رائحته العطرة نوعاً من التغيير كبدل عن الشاي المعتاد .

مع الوقت تلاشى أيضاً ذلك النصب التذكارى الأبيض بشكله المربع الذى كان يحاذى الصخور المطلة على بيت القس والذى من خلاله كنت ترى الزائر وهو يدخل البوابة .

كان سيد ذلك البيت قوياً مثل الصخور .. كان أسود ضخماً وله رأس جرانيتية وأقدام هائلة ويدعونه غالباً بالقس أو الكاهن أو المحترم أو كما كانت تدعوه أمى (باديلومو) .. كنا كثيراً ما نخرج مع أمى فى حملتها الشرائية أو لزيارة الأقارب أو لبعض أغراض أخرى لم نكن ندركها ودائماً ما كنا نعود بإنطباعات غامضة عن رؤية شئ ما وكان الإبتهاج يملكنا دائماً رغم شعورنا بالإجهاد الشديد لأننا غالباً كنا نسارع فى إعداد أنفسنا وارتداء ملابسنا وتمشيط شعرنا بالإضافة إلى أننا كنا نسير على أقدامنا معظم الطريق

وحدث ذات مرة أن تسلقنا الطريق العالى وتجاوزنا مدخلاً رائعاً وأعمدة بيضاء وكان مكتوباً على اللوحة : (المقر) .. كان من الواضح أن رجلاً أبيض يعيش هنا وكانت البوابة فى حراسة شرطى يرتدى شورتاً فضفاضاً ويحملق فى وجوهنا .. كان المنزل خلف التل تغطى الأشجار جزءاً منه وقد وقعت عينائى على خرطومين أسودين ثقيلين مسنودين بعجلات من الخشب وواقفين على أعمدة وكأنهما يشيران إلينا مما أثار إنتباهى .. كانت كومة من الكرات المعدنية الدائرية بحجم كرة القدم إلى جانب كل خرطوم ..

قالت أمى : إنها مدافع تستخدم فى الحروب

قلت : لكن بابا يدعو (باديلومو) بالمدفع .. لماذا ؟

شرحت لنا الفارق لكننى كنت قد عرفت الإجابة الخاصة بى .. إنها الرأس .. إن رأس (باديلومو) تشبه كرة المدفع ، ولهذا كان يدعو بابا بالمدفع وكان كل شئ عن المدافع يستدعى وجود الرجل ، وقوته وصلابته .. كانت المدافع غير قابلة للتحرك أو التخريب وكذلك كان هو وكأنه قادر على قهر أى شئ .. عند زيارته لنا كان يشغل الحجرة الأمامية بكاملها ولم تكن تناسبه سوى الردهة الواسعة والكرسى ذى المسندين .. شعرت بالأسف على كتبه الدينية وعلى القس الأعظم وراعى الأبرشيه ومساعديه فقد كانوا تافهين مثله وفقراء الروح مثل فأر الكنيسة .

كان العم (رانسوم كوتى) أحد الرجال الذين يأتون إلى منزلنا يرتدى قلادة دائرية وكانوا جميعاً ينادونه (داودو) وكان دائماً يتفوق على نفسه

كان (باديلومو) يفزعنى بوجوده إذ لم يكن يسيطر على بيت القس وإنما على آكية بأسرها وكان أكثر نشاطاً من (كابينزى)

كانوا فى الغالب يتمددون على الأرض وكان أحدهم الأسقف (هاويز) الذى يعيش فى عزلة ليست ببعيدة عن منزلنا .

كان القس دائم الحضور للنقاش مع أبى وأحياناً كانت تبدو المناقشة خطيرة وهامة وفى أحيان أخرى كنت أسمع ضحكاته تسرى فى المنزل لكنه وأبى ما كانا يختلفان .. نعم .. لم أسمعهما أبداً يختلفان فى مناقشتهم عن الله كما كان يفعل أبى مع بائع الكتب وأصدقاء آخرين وكنت فى البداية أخاف كثيراً من تلك المناقشة فى أمور الدين وخاصة حين كان يتحدث بائع الكتب بصوته العالى ورقبته التركية والذى كان طبيعياً على عكس القس الذى كان يبدو قوياً فكانت المنافسة غير متكافئة وتعد خطراً على بائع الكتب .

فى كل المناقشات كان (إسحق) مدافعاً شريراً فى البداية كانوا يدعونه (S.A) أو (H.M) أو السيد ولأسباب أخرى كان أصدقائه يدعونه (إس - إيه - شو) وقليلون من كانوا ينادونه بإسمه .. تعجبت لكثرة أسمائه غير أننى فى نهاية الأمر لم أستطع أن أقنع بذلك الكلام المنتقى وتلك

كان خط (إسحق) جميلاً وكذا كانت ملابسه أما عن عاداته فى الأكل فقد كان مصدر تهجيب من الأم ولم يكن يشرب أبداً بين الأكل ولا حتى رشفة واحدة وكان يشور أحياناً أثناء المناقشة مثل بائع الكتب وحين كان يطرف بعينه الصغيرتين فإنه يكون أكثر حدة .

-- كانت زوجة بائع الكتب إحدى أمهات لنا كثيرات وكان جمالها بليداً وبشرتها سوداء فاحمة وطيبة إلى حد كبير .. كانت هى وأمى أول من يجيب علينا إذا ما اختلفنا حول سؤال ما ولم تتسبب أبداً فى إزعاجى خاصة فيما يتعلق بأفكارى وتساؤلاتى وكانت على النقيض من زوجها ذات قلب كبير وكان ظهرها الكبير أكثر أماناً وراحة من ظهور نساء كثيرات حملتنى فوق ظهورهن .. كان ظهرها ناعماً يبعث على الأمان والهدوء والطيبة التى ترسم على وجهها .

حين كنا ننام فى منزلها كانت تسأل الخادمة أن تعتنى بطعامنا ونومنا وكانت تعمل على حل أى مشكلة نقع فيها ولما كانت ماما تلاحقنا بالعصا كانت تدافع عنا قائلة : لا .. لا .. إضربينى بدلاً منهم .. يالها من امرأة طيبة .. كانت طيبة ورقيقة .

كانت (بوكولا) إبتها الوحيدة ولم تكن (بوكولا) من عالمنا فقد كانت

تبدولى أنها أحد ساكنى العالم الآخر .. كانت (بوكولا) مقيدة إلى الأرض
بتلك التعاويذ والأحجية والخلاخيل التى ترتديها فى ركبتها وأصابعها
وخصرها ركانت تعرف بأنها * ábikú ولم يحدث أن تجرأ والداها على
توبيخها لمدة طويلة أو بشكل حاد .

إنسحبت عينا (بوكولا) فجأة نحو الداخل ولم يظهر منهما سوى البياض
فبادرت (تينى) بالجرى ووقفت بالقرب منا ورحت أسأل (بوكولا) هل ترين
ما تفعلينه بعينيك ؟

• إنه الظلام .. ظلام فقط .

• هل تتذكرين أى شئ عن العالم الآخر ؟

• لا .. لكن ذلك يحدث حين أكون فى حالة من النشوة .

• وهل تقدرين أن تكونى فى هذه الحالة .. أعنى حالة النشوة ؟

كانت (تيتى) تهددنى من بعيد أن تخبر أبى وأمى إذا لم أتوقف عن
تساؤلاتى ..

أجابت (بوكولا) بأنها تستطيع فقط إذا كنت قادراً على إعادتها إلى

* Àbikú الطفل الذى يولد ثم يموت ثم يولد ثم يموت وهكذا . (المترجم)

حالتها الأولى لكننى لم أكن متاكداً من قدرتى على ذلك فنظرت إليها بامعان
وتعجبت لقدرة أمها على التحكم فى ذلك المخلوق الميت .

كانت الأجراس فى ركبتها تصدر أصواتاً كالخشخشة وهى تحدث
أصدقاءها من العالم الآخر ؟

• هل تسمعينهم فعلاً ؟

• غالباً .

• ماذا يقولون ؟

• لا شئ .. إننى فقط أذهب وألعب معهم .

• ألا يجدون من يلعب معهم ؟ ولماذا يضايقونك ؟

هزت كتفها فى لا مبالاه وأحسست بالأسى ثم خطرت ببالى فكرة ..

• لماذا لا تأتين بهم إلى هنا ؟ .. حين يستدعونك فى المرة القادمة

قدمى لهم الدعوة للحضور ومشاركتنا للعب .

هزت رأسها قائلة : إنهم لا يستطيعون .

• ولم لا ؟

• لأنهم لا يقدرّون على الحركة كما نفعل نحن كما أنك لا تستطيع الذهاب إليهم .

لم تكن (بوكولا) تشبه (تينى) أو تشبهنى أو حتى أصدقاءها فى العالم الآخر .. كانت وحدها التى تستطيع العبور بسهولة من عالم إلى آخر .

شاهدتها ذات مرة وهى تعانى نوبة دوار .. كانت عيناها جاحظتين وأسنانها مطبقة بينما كان جسدها يترنح وأمها تبكى وتقول : ساعدنى .. إنها تعانى برداً شديداً .

ثم راحت بيأس تلك جسدها كى تعيد إليها الحياة حين سارع والدها بالحضور من المكتبة عبر الباب المجاور وفتح فمها بقوة .. إنتزعت الخادمة الزجاجة من الدولاب وصبت بعض السائل فى حلقتها لكن (بوكولا) ظلت على حالها لكنها بعد لحظات تجاوزت الخطر وقل التوتر بين أهل البيت .. تمددت على السرير وعادت إلى وعيها تماماً واكتسى وجهها بجمال أخاذ فجلست أنا و (تينى) بجوارها نتأملها حتى إستيقظت .. كانت أمها مشغولة بإعداد شوربة السمك وفى العادة كنا جميعاً نأكل من نفس السلطانية لكن زوجة بائع الكتب وضعت هذه المرة بعضاً من الشوربة فى إناء صغير وأضافت إليه سائلا ثقيلاً من الزجاجة وكان مالحاً وذا طعم رديء ورائحة كريهة .. رفعت رأس إبنتها تساعدها فى إحتمساء مشروبها الخاص وقمنا نحن بإحتساء الشوربة .. شربت (بوكولا) جرعتها بدون أية شكوى فقد كانت تعرف ذلك

المشروب وحين تجاوزت (بوكولا) الأزمة بادرنا بالخروج كى نلعب لكن أمها
أصرت على بقائنا .

أخبرت (بوكولا) عن الأزمة التى مرت بها وقلت : هل كان زملاؤك ينادونك
أثناء ذلك ؟

قالت : لا أتذكر .

• لكنك تستطيعين فعل ذلك وقتما تشاعين !

• نعم .. خاصة حين يفعل أبى أو أمى أو الخادمة شيئاً يضايقنى .

• ولكن كيف يحدث ذلك ؟ كيف فعلاً يحدث ذلك ؟ إن عينيك تتحولان
إلى اللون الأبيض .

• حقا !! .. هل يحدث ذلك ؟ .. كل ما أعرفه أن

توقفت برهة عن الحديث ثم إستطردت : عندما يرفض أبى أو أمى طلباً
لى أو يقولان لى لا فإننى عندئذ أسمع زملائى الآخرين يقولون : (هل ترين ..
إنهم لا يريدونك معهم وهذا ما قلناه لك)

فيخامرنى شعور جارف بالذهاب بعيداً وأقول لأبى وأمى : سوف أذهب ..
سوف أذهب إذا لم تفعلوا كذا وكذا وإذا لم يفعلوا بالفعل فإننى أشعر
بالإغماء ويصيبنى الدوار .

• وماذا يحدث إذا لم تعودى كما كنت ؟

• لكننى دائماً أعود .

لم تكن زوجة بائع الكتب تنزعج من طفلتها الخرقاء .. كانت امرأة طيبة وراقية وكما عرفنا فيما بعد أن (بوكولا) لم تكن قاسية فهكذا شأن أُل A' bikú إذ ليس بمقدورها التحكم فى نفسها .

فكرت فى كل الأشياء التى كانت (بوكولا) تسأل عنها والأشياء التى يعجز الوالدان عن تحقيقها فقلت لها : ماذا لو عجزوا عن تلبية طلب مثل سيارة فاخرة مثلاً ؟

قالت بإصرار : لا بد أن يقوموا بما أطلبه .

قلت : لكن ثمة أشياء ليست فى مقدورهم إذ أن الملك نفسه لا يملك كل شئ .

قالت : حدث فى آخر مرة أن طلبت عمل سهرة فرفض أبى قائلاً : كانت لنا سهرة منذ وقت قريب فأصابنى الدوار والأغماء .

إعترضت (تينى) وقالت : لكن الواحد منا لا يستطيع القيام بسهرة كل يوم .

أجابت بعناد : أنا لا أقوم بعمل سهرة كل يوم ويومها لم أكن أطلبها لى

فقد كانت لزملائي حين أخبروني أن أرتب لهم سهرة ما دمت لا أستطيع الذهاب معهم .

كنت ألاحظها بدقة حين هزت كتفها بلامبالاه وتغير وجهها الدائري الجميل فهل كانت تدبر رحيلاً آخر ؟ !

(٢)

- فى كل صباح كانت (تبنى) تذهب للمدرسة قبل أن أستيقظ وكانت تعود عند منتصف النهار حاملة لوح الكتابة .. كانت ترتدى الزى الكاكى مثل كل الأولاد الذين كانوا يتحركون فى شكل دائرى بغير نظام حول البيت منذ الصباح وحتى ما بعد الظهر مشغولين باللعب أو الدرس .

كان أحدهم فى ساعة الصباح يشد السلسلة المتعدلية من جرس المنزل فبدأ الجرس فى الرنين وتبدأ التحركات حول مبنى المدرسة وثمة بهلوانيات وسباق وشجار بين التلاميذ حتى ينقسموا إلى مجموعات كثيرة وعندما يسود النظام يظهر الأب من حيث لا أدرى بخطواته الكبيرة ويخطب فيهم ثم ينتحى جانباً فيتقدم أحد أعضاء المجموعة الكبيرة للأمام ويغنى بينما يسير الآخرون إلى مبنى المدرسة فى صفين على إيقاع الأغنية .

كانت الأغنية تتغير كل يوم وكنت أطرب لأغنية بعينها كانوا يغنونها بمتعة أكثر من بقية الأغاني حتى إنهم كانوا يرقصون عليها بدلاً من المشى ولم يكن ذلك يضايق المدرسين وإنما كانوا يبتسمون فى وجوههم ويشيرون إلى التلميذ الذى يقرع الطبول وهو يخفض أكتافه بطريقة ملفتة للنظر .

كانت الأغنية باللغة الانجليزية لكن الكورس كان يبنى بلغة اليوروبيا واستطعت فقط أن أسمع الكلمات الأخيرة

B'ing njo maJe'ko

B'ole nja,ma Je'ko

Eni ebi npa , omo wi ti're *

لم أسمع من قبل مثل ذلك الغناء الملىء بالحياة فى أى مدرسة أخرى لكننى سمعته فقط فى تلك المدرسة التى إتحققت بها أختى وبدأت غيرتى تزداد يوماً بعد يوم فشعرت أختى بتلك الغيرة وراحت تراوغنى بعدم الإجابة على أسئلتى أو إشباع رغبتى فى التعرف على الأجزاء الناقصة من تساؤلاتى .

« أنا ذاهب إلى المدرسة » .. هكذا أعلنت فى يوم ما فإنطلقت الضحكات فى الحال وقالت أمى فى هدوء : إنتظر حتى تكبر مثل أختك .

ذات مرة إختلست النظرات داخل مبنى المدرسة فكانت مهممات التلاميذ ذات نعمات غاضبة لم أستطع أن أتبينها ومن خلال الشبابيك المفتوحة لفصول المدرسة شاهدت رعوس التلاميذ فى حالة من التركيز وكان المدرس بهيئته الجليلة يتحرك فى حجرة الدرس جيئةً وذهاباً وهو يتحدث إلى التلاميذ الذين يستمعون بإنتباه شديد وكانت تتبادر إلى سمعى أغنيات مختلفة من

* " إذا شب حريق فى البيت يجب أن أتناول طعامى

إذا سرقوا البيت يجب أن أتناول طعامى

إتركوا الطفل الجائع يتكلم . "

(٢)

- فى كل صباح كانت (تبنى) تذهب للمدرسة قبل أن أستيقظ وكانت تعود عند منتصف النهار حاملة لوح الكتابة .. كانت ترتدى الزى الكاكي مثل كل الأولاد الذين كانوا يتحركون فى شكل دائرى بغير نظام حول البيت منذ الصباح وحتى ما بعد الظهر مشغولين باللعب أو الدرس .

كان أحدهم فى ساعة الصباح يشد السلسلة الحديدية من جرس المنزل فيبدأ الجرس فى الرنين وتبدأ التحركات حول مبنى المدرسة وشقة بهوانيات وسباق وشجار بين التلاميذ حتى ينقسموا إلى مجموعات كثيرة وعندما يسود النظام يظهر الأب من حيث لا أدرى بخطواته الكبيرة ويخطب فيهم ثم ينتحى جانباً فيتقدم أحد أعضاء المجموعة الكبيرة للأمام ويرفئ بينما يسير الآخرون إلى مبنى المدرسة فى صفين على إيقاع الأغنية .

كانت الأغنية تتغير كل يوم وكنت أطرب لأغنية بعينها كانوا يغنونها بمتعة أكثر من بقية الأغاني حتى إنهم كانوا يرقصون عليها بدلاً من المشى ولم يكن ذلك يضايق المدرسين وإنما كانوا يبتسمون فى وجوههم ويشيرون إلى التلميذ الذى يقرع الطبول وهو يخفض أكتافه بطريقة مألوفة للنظار .

كانت الأغنية باللغة الانجليزية لكن الكورس كان ينشئ بلغة اليوروبا واستطعت فقط أن أسمع الكلمات الأخيرة

B'ing njo maJe'ko

B'ole nja,ma Je'ko

Eni ebi npa , omo wi ti're *

لم أسمع من قبل مثل ذلك الغناء الملىء بالحياة فى أى مدرسة أخرى لكننى سمعته فقط فى تلك المدرسة التى إلتحقت بها أختى وبدأت غيرتى تزداد يوماً بعد يوم فشعرت أختى بتلك الغيرة وراحت تراوغنى بعدم الإجابة على أسئلتى أو إشباع رغبتى فى التعرف على الأجزاء الناقصة من تساؤلاتى .

« أنا ذاهب إلى المدرسة » .. هكذا أعلنت فى يوم ما فإنطلقت الضحكات فى الحال وقالت أمى فى هدوء : إنتظر حتى تكبر مثل أختك .

ذات مرة إختلست النظرات داخل مبنى المدرسة فكانت همهمات التلاميذ ذات نغمات غاضبة لم أستطع أن أتبينها ومن خلال الشبايبك المفتوحة لفصول المدرسة شاهدت رعوس التلاميذ فى حالة من التركيز وكان المدرس بهيئته الجليلة يتحرك فى حجرة الدرس جيئة وذهاباً وهو يتحدث إلى التلاميذ الذين يستمعون بإنتباه شديد وكانت تتبادر إلى سمعى أغنيات مختلفة من

* " إذا شب حريق فى البيت يجب أن أتناول طعامى

إذا سرقوا البيت يجب أن أتناول طعامى

إتركوا الطفل الجائع يتكلم . "

أجزاء متفرقة من كل مبنى وفى بعض الأحيان كنت أسمع غناء مباشراً بمصاحبة موسيقى الهارموني وبعد ممارسة الطقوس الداخلية والشعائر الدينية كانوا يخرجون فى مجموعات مختلفة يلعبون ألعاباً كثيرة ويقفزون فى كل مكان ويلتقطون الأوراق والأغصان التى تكسو الأرض ويكنسون الطرق ويقلمون المروج والأشجار .. كانوا يطوفون هنا وهناك يجرفون الأرض بالسيف والمكانس والعصى وينحتون الخشب الخيزران ويقومون أيضاً بتشكيل الطين والصلصال إلى أشكال كثيرة وغريبة .

كنت أرى تلك النشاطات المختلفة من فوق رصيف منزلنا حيث ألعب وحدى بينما كانت العمه (لاوائل) تراقبنى بعينيها القلقتين .. كانوا يلعبون لعبة الدوائر ويتشاجرون على الكرة ثم يعودون إلى كتبهم وتمارينهم وألواحهم التى يكتبون عليها .. كانوا يضعون الكتب فى صناديق صغيرة من القصدير أو الخشب أو فى حقائب مصنوعة من ليف النخل وكان بعضهم يربطها بحبل ويحملها فوق رأسه أو يعلقها فوق كتفه وهم ذاهبون إلى فصولهم للدرس وممارسة طقوسهم الدينية الغامضة .

- كنا ما نزال نلعب معا لكن (تينى) وزملائى صار لهم عالم جديد فى اللعب بدخولهم المدرسة .. أصبح لتينى مكان جديد تلعب فيه وترسم فيه وكانت تستيقظ مبكراً عنى فى كل صباح حيث يقودها واحد من الأولاد الكبار فى منزلنا إلى المدرسة فأصبحت ألعابى كلها بلا قيمة لكننى كنت

أضحك رغم وحدتى ولم أعد أطلب اللحاق بتينى فى المدرسة غير أننى إستيقظت ذات صباح مع تينى واغتسلت فى نفس الوقت الذى تغتسل فيه ثم تناولت إفطارى وقررت بإصرار شديد أن أرتدى تلك الملابس التى هى أقرب إلى زى المدرسة وتناولت بعض الكتب من فوق مكتب أبى ثم إنتظرت فى الحجرة الأمامية حتى ذهبت (تينى) مع رفيقها وما هى إلا بضعة دقائق حتى حملت الكتب وتسللت وراءهما بخفة حتى وصلت المدرسة .. إنتظرت قليلاً عند الباب ورأيت المقعد الذى تجلس عليه (تينى) ثم إندفعت متسلقاً المكان ووجدت نفسى إلى جوارها .

كانت (لاوانل) هى التى إصطحبت (تينى) إلى المدرسة فى ذلك الصباح وعندما رأتنى صرخت بتحذير ودهشة : ما هذا الذى تفعل ؟

لم أهتم بها وكان أن سمع المدرس تحركات غريبة بين التلاميذ وعند دخوله الحجرة كان جميع التلاميذ يضحكون من وجودى .. تطلعوا نحوى وهم يشيرون بإصابعهم من الأمام والخلف دون أن يتوقفوا عن الضحك .

كان المدرس المسئول عن قسم الأطفال صديقاً لأبى وغالباً ما كان يأتى لمنزانا فلم أجد صعوبة فى التعرف عليه وكم رأفتى أنه لم يكن يضحك مع الآخرين .

وقف أمامى وسألنى : هل جئت لمرافقة أختك ؟

* لا .. بل جئت من أجل المدرسة .

نظر إلى الكتب التى تناولتها من مكتب أبى وقال : أليست هذه كتب أبىك ؟

* نعم هى كذلك وأنا أريد أن أتعلم منها .

* لكنك ما زلت صغيراً يا (وول) !

* إن عمى ثلاث سنوات .

قاطعتنى (لاوانل) : ثلاث سنوات يا (وول) ؟! لا عليك يا أستاذ إنه سيبلغ الثالثة فى يوليو القادم .

قلت : تقريباً ثلاث سنوات وعلى أية حال فلقد جئت إلى المدرسة ومعى الكتب .

توجه الرجل إلى مدرس الفصل قائلاً : سجل إسمه فى القائمة .

ثم بادرنى بقوله : وبالطبع فإنك لست مضطراً للمجئ كل يوم .. تعال فقط حين تشعر برغبة فى المجئ فقد تستيقظ غداً صباحاً وتشعر بأن رغبتك فى اللعب والبقاء فى المنزل أكبر من رغبتك فى المجئ إلى المدرسة .

نظرت إليه بدهشة وكانت الخرائط الملونة والصور والأشياء المعلقة على الحائط وتلك الشبايبك والأحجار الأردوازية وزجاجة الحبر ذات الثقوب الدائرية والأقلام وكتب الرسم ورسوم الحيوانات والإنسان والسبورة

والطباشير .. إنها حجرة جميلة للعب وسرعان ما فكرت فى أشياء كثيرة غامضة وارتبطت المدرسة فى ذهنى بكومة من الكتب التى كان أبى يتحدث عنها باهتمام فى الحجرة الأمامية من المنزل والتى كانوا يخطفونها منى فور أن تمتد يدي إليها .

كل ذلك جعلنى أعلن بثقة : سوف أحضر كل يوم .

- أصبح منزل السيد (أولا جباچو) الأعزب الواقع خلف المدرسة هو منزلنا الثانى الذى نتناول فيه الغذاء وكانت البطاطاهى طعامه المفضل وسرعان ما أصبحت شريكه الحميم الذى تعرفت من خلاله على (أوزيكى) الذى أصبح بدوره صديقى القريب .. كان (أوزيكى) يعشق البطاطا أكثر منى ومن السيد (أولا جباچو) وكان طبيعياً أن يرافقتنى حيث توجد وجبة الإيان * (iyan) فى منزلنا أو عند السيد (أولا جباچو) .

تملكتنى الدهشة حين سمعت أمى تقول : هذا الولد سيكون مثل أبيه .. إنه يأتى بالأصدقاء إلى المنزل فى وقت الطعام دون أن يخبرنا .

تعجبت وقلت لنفسى : لا أرى سبباً لإخبار أحد بذلك .. إنه لشئ طبيعى فى العالم أن يأتى الواحد بصديق إلى المنزل فى وقت الطعام .

أصبح (أوزيكى) صديقى الملازم لى وصار أحد ملامح منزلنا التى إعتدنا عليها وبخاصة فى أيام آل (iyan) حتى أن أحد أفراد منزلنا كتب له

* طعام يحتوى على البطاطا

أغنية تقول: osiki oko oniyan:

Ati nwa e,a ko rie * (2)†††

وكانوا يبدؤون فى الغناء فوراًن يشاهدونا معا وكل منا ممسك بيد الآخر
فى طريق عودتنا من المدرسة ...

كانت البطاطا اختباراً أولياً لصداقتنا .

- كنا نقضى ساعات المدرسة المنتظمة دون أى شعور بالملل لأن الاختلاف
كان كبيراً بين فصل المدرسة والمكان الذى نعيش فيه .. كانت المدرسة بما
فيها من شخصيات وأشكال مختلفة تعد إكتشافاً جديداً بالنسبة لى أنا الذى
يهوى الجديد مما جعلنى أتأخر بعد زهاب كل التلاميذ متوقفاً عند الأشياء
التي تأخذ أشكالاً ومعانى وأبعاد مختلفة لم أرها من قبل .. أحيانا كنت
أتسلق الصخور الممتدة وكان (أوزيكى) يفتقدنى حين يتقدمنى كثيراً ولا يجد
لى أثراً .

- فى الثالثة عشر من يوليو عام ١٩٢٨ كان الجميع مستعدين .. إتجهت
فوراً من المدرسة إلى المنزل بصحبة أعز الأصدقاء وعلى رأسهم (أوزيكى)
.. خلعوا أحذيتهم فى الحجرة الأمامية وتوجهوا إلى الردهة وكان الضيوف
جميعاً فى أحسن حالاتهم ينتظرون بشغف الطعام والشراب وسماع
الموسيقى من الجرامفون وبعض الألعاب والتسلية ولأننى أنا الذى وجهت لهم
الدعوة كنت أتصرف وكأئننى رب البيت ثم جلست بينهم وانتظرت بداية الحفل

• أوزيكى .. سيد بانعى البطاطا .. بحثنا عنك فى كل مكان وفشلنا فى العثور عليك .

كان المنزل هادئاً فلم يكن إسحق قد جاء من المدرسة بعد وكانت أمى ما تزال فى دكانها مع (ديبو) الذى كان مربوطاً بشريط إلى ظهر العمه (لاوائل) .. ولكن أين الآخرون ؟ كان من الواجب أن تتواجد أمى لترحب بأصدقائى .. إن (تينى) أيضاً لم تكن بالمنزل وقد كانت تستطيع القيام بخدمتنا لأنها الآن قد كبرت بما يكفى .

خرجت إلى الحوش الخلفى لعلى أجد واحداً من أبناء عمى أو أرى ما يدل على الإعداد لعيد الميلاد لكن أحداً لم يكن هناك وكان المطبخ فارغاً لم أستطع أن أشم فيه رائحة توحى بالطعام .. ناديت بأعلى صوتى معلناً عن وجودى مع الضيوف ثم صحت : أين أنتم .. أين أنتم ؟

أصابنى الإرتباك وعدت أتفحص الدولاب والمائدة فى حجرة الطعام فلم أجد شيئاً على الإطلاق .. لم أجد كئوساً من تلك التى يتبادلون بها التحية ولا أكواب ولا حلة الكعك أو الأرز .. كيف أتصرف إزاء عيد ميلادى .. لم يكونوا فى حاجة إلى من ينبهم بذلك .. راجعت التاريخ فى النتيجة مرة أخرى لأطمئن نفسى فكان هو نفس اليوم ثم جلست مع ضيوفى فى إنتظار حدوث شئ ما .

جاءت أمى بعد لحظات و(ديبو) فوق ظهرها ثم تبعتها (لاوائل) وآخرون حاملين الأشياء التى يأخذونها معهم كل صباح إلى الدكان .. هزت أمى رأسها وحركت عينيها بطريقة غريبة ثم توقفت عند الردهة وأطالت النظر إلى أصدقائى ورمقتنى بنظرة خاصة دون أن تتوقف عن هز رأسها وسارعت إلى المطبخ حيث سمعتها تصدر أوامرها بسرعة تجهيز الأوانى .. أومأت للضيوف

برأسى وشعرت بالرضا ثم قلت لهم : سوف نبدأ الإحتفال بعد قليل .

تقدمت (تينى) وأخبرتني أن أمى تريدنى فى المطبخ ..كانت يداها تغوصان فى الدقيق الذى تعجنه وقالت دون أن تنظر لى : والآن يا (وول) أخبرنى لماذا جاء أصدقاؤك ؟

كان السؤال غريباً لكننى أجبت : إنه عيد ميلادى !

قالت بتهكم : عيد ميلادك !

بينما كانت (لاوائل) والآخرين يضحون بالضحك حيث إستطردت

أمى : أتعرف بأنكم كنتم ستنتظرون طويلاً لو لم تكن (تينى) قد جاءت وأخبرتني !

أشرت إليها بأن اليوم هو عيد ميلادى فقالت بنفاد صبر : لا أحد ينكر هذا لكننى كنت أنوى أن أصنع شيئاً خاصاً هذه الليلة ولكن ... إستمع ... لا يجب أن تدعو أحداً إلى البيت دون إخبارنا .. هانحن لا ندرى ماذا نفعل .. يجب أن تقول لنا .

أزعجنى ذلك التوبيخ وصرت قلقاً بضع لحظات ولم أجد أعذاراً أتقدم بها ففقد عيد ميلادى كثيراً من بهجته التى إفتقدتها أيضاً فى بيت القس يوم وقعت فوق رأسى من على الأرجوحة .

عندما جاء دورى فى التسلية رحمت أغنى وكانوا يرددون ورائى بينما (أوزيكى) يطرق فوق المائدة بمهارة طرقات متناغمة : (كو .. كو .. كو .. تى .. كو

..كو...)

سألته أمى بمزاح : هل عملت طبياً من قبل مع المتكرين ؟

كانت دهشتنا عظيمة حين أجب : نعم وكنت أرتدى قناعهم الذى يمرون به
فى المدينة فى عيد « إيجونجون » ⁽¹⁾ * egúngún السنوى .

كنت أشاهد egúngún من قبل فى الحوش الخلفى فوق الحائط وهم
جالسون فوق أكتاف جوزيف وكنت أعرف بأنهم أرواح الموتى وأسمعهم
يتحدثون بأصوات نابعة من الحنجرة وكانوا يجلبون الخوف أكثر من
للصوص وفى وقت ما لاحظت أن كثيراً منهم يلعب ويمرح مع الأطفال وذات
مرة كنت قريباً من أكتاف جوزيف عندما مر أحدهم بالقرب من الحائط ونظر
إلى أعلى وهو ينادى ملء فمه بطريقة مألوفة : ⁽²⁾ Nle o,omo Tisa gba
تعجبت لكونهم يعرفوننى فشرح لى جوزيف بأنهم يعرفون كل شئ عن كل
الأحياء كما أنهم يعيشون مثلنا وفى حفل عيد ميلادتنا حول (أوزيكى)
وسألته : أريد أن أراهم .

إرتفع صوت ماما بالتحذير قائلة : ماذا تريد ؟! هل حقاً ما سمعت بإتاك
تريد الذهاب لرؤية egúngún فى بيتهم ؟!

قلت متجاهلاً إياها : (أوزيكى) .. هل ستأخذنى ؟

* (1) egúngún : أرواح الموتى (المترجم)

* (2) Nle o,omo tisa Agba : تحياتى يا ابن المدرس الأول (المترجم)

أجابت : (أوزيكى) لن يأخذك ومن الأفضل ألا يسمعك أبيك .

* ولم لا ؟ هو أيضا يستطيع أن يأتي .. نستطيع أن نأخذه يا أوزيكى)
.. أليس كذلك ؟ .. إنه رجل والنساء فقط هن اللاتي لا يستطعن الذهاب إلى

هناك

تطلعت أمى حولها ومضت نحو (أوزيكى) وهى تهز رأسها كى تسمع
بعض الحكايات عن الأنواع المختلفة من egúngún .. كان لهم الكثير من
الحيل والخدع السحرية وكانوا يحولون أنفسهم إلى ثعابين ونمور وخراف ثم
يعودون مرة أخرى كما كانوا ولقد شاهدت بعضاً منهم يلعب الاكروبات فوق
الحائط ويقفز فى الهواء إلى الأمام والخلف .

سألت (أوزيكى) : هل أقدر أن أعود مثلهم إذا مت ؟

قال : لا أعتقد فلم أسمع أبداً عن مسيحي أصبح egúngún .

* هل يتحدثون الإنجليزية فى عالمهم ؟

هز (أوزيكى) كتفيه دون إهتمام : لا أعرف لكن egúngún الخاص بنا لا
يتحدثون الإنجليزية .

كانت صورة ثلاثة من الرجال البيض مرسومة فوق زجاج الشبابيك خلف
مذبح كنيسة القديس بطرس وكانوا يرتنون أرواباً تشبه كثيراً أرواب
egúngún .. أحسست بشئ غريب نحو تلك البلاد التى جاء منها أولئك
الناس ذوى اللون الأبيض .

كنت أحقق في الوجوه الثلاثة حين قالت (تيني) : إنهم ليسوا egúngún ..
.. أنهم الرسل والثلاثة للقديس بطرس نفسه .

* وأذن لماذا يرتدون نفس ملابس egúngún ؟

* إنهم مسيحيون وليسوا متنكرين .

* إنهم ميتون .. أليس كذلك ؟ لقد أصبحوا egúngún لأنهم يرتدون
هذه الأرواب دعينا نسأل (أوزيكي) .

قال (أوزيكي) : لم أسمع حتى الآن عن أى مسيحي أصبح egúngún

ثم ابتسم فجأة واستطرد : إنتظر .. لقد تذكرت .. قال لى أبى منذ سنوات
مضت أنهم رأوا أُل egúngún الخاص (بأجيل) .. هل تعرفه ؟ .. كان ضابط
المنطقة هنا من قبل .

رحت ألف وأدور حول (تيني) بفرح شديد وتملكنى شعور بالنصر ثم قلت :
هل ترين .. أستطيع الآن أن أتحدث إليهم من شبك الكنيسة حين يأتون ..
أننى متأكد يا (تيني) أنهم يتحدثون الإنجليزية .

* أنت لا تعرف عما تتحدث .. أنت طفل صغير .

ثم نظرت تيني إلينا باحتقار وتركتنا وحيدتين

قلت لأوزيكي : لا تشغل بالك بها فهي تعرف بأننى أحب ذلك الذى فى
الوسط .. إنه القديس بطرس

وقد قلت لها من قبل أنه egúngún الخاص بى .. إذا ذهبت معك فقد

نستطيع بعد ذلك الذهاب إلى مقبرة الكنيسة ونساعده على الخروج من الأرض بنفس الطريقة .

قال (أوزيكى) ساخراً : بوجهه المكشوف مثل هذه الصورة ؟

فقلت : لا .. بالطبع لا .. إن هذه صورته فقط لكنه عندما يأتى من الأرض سيكون مرتدياً ملابسه وساكون قادراً على محادثته .

شعر (أوزيكى) بالإجهد ونظر إلى قائلاً : أنا لا أعرف .. فعلا لا أعرف إذا كان حقاً سيصبح egúngún !!

* لكنك قلت منذ قليل أن egúngún الخاص بضابط المنطقة قد خرج فى موكب من قبل .

حاول (أوزيكى) أن يشرح : لم يكن نفس الشئ ..

ثم إترف أخيراً بأنه حقاً لا يفهم فقلت له أن ضابط المنطقة كان مسيحياً وذا لون أبيض .

كان (أوزيكى) خائفاً وشعرت بخيبة أمل شديدة لعدم معرفتى إحضار الروح الخاصة بالقديس بطرس بدون خبرته .

(٣)

- كان السور الحديدى عالياً بالنسبة لى أنا الصغير ولم أستطع أبداً أن أتسلقه كما يفعلون وهم واقفون عليه متطلعين إلى الخارج معلقين على ما يشاهدون .. حاولت كثيراً أن أتسلق إلى جوارهم لكننى كنت أحتاج لجهود عظيمة وكان من الخطر أن أفعل .

- شاهدى (جوزيف) ذات يوم وقرأ فى عينى تلك الرغبة فرفعنى عالياً فوق أكتافه واستطعت من فوق سور الفناء أن ألقى بأول نظرة .. كانت مجموعة من الراقصين تعبر الطريق المؤدى إلى النصب التذكارى خلف الكنيسة هى أول ما وقعت عليه عينائى .

قال (جوزيف) : إنه القصر .

كنت قد تعرفت على الكنيسة والنصب التذكارى وبعض ملامح الأرض الممتدة ثم البوابة الكبيرة للبيت الكبير وأدركت أن الأسوار الخارجية لبيت القس كانت متصلة ومتلاحقة وعن طريقها يمكن الوصول إلى البوابة والشبابيك ولما كنت ما أزال فوق كتفى (جوزيف) رأيت سور المخزن حيث يحفظون أواني الطهى وأدوات الحديقة وسور المخزن الآخر الذى يحتوى على خشب الحريق والدجاج وتوقفت عينائى أمام منزل القس المنتهى بسياج صغير يؤدى إلى بوابة البيت عبر مدرسة البنات المنخفضة متعامداً مع المكتبة

كانت المكتبة هى المبنى الوحيد فى البيت الكبير الذى يواجه الشارع ..

بامتداد السور كانت بعض النوافذ القليلة للتهوية وتجديد الهواء وغالباً ما

كانت تغطي السور أشكال مختلفة من أوراق الموز المناسبة والجوافة وأوراق
النبات الشائكة التي جرحتنى فى وجهى وكان واضحاً أننا هنا فى هذا البيت
الكبير نعيش مع أنفسنا فى مدينة منفصلة عن "أكية" تلك المدينة المتصلة
بأسقف صدئة.. كانت بقية الأشياء غامضة تتخللها بعض الشقوق .

فى المرة التالية حين سمعت نفس الأصوات لم أضايق نفسى بمحاولة
تسلق السور .. كنت أعرف أننى لم أستطع على أية حال وأننى قد عرفت
مكان البوابة فأستطيع عندئذ المرور من خلالها إلى الطريق المؤدى إلى
الكنيسة بمساعدة (لاوانل) أو بالامسك بيد (جوزيف) أو يد ماما حيث يمكننى
خارج البوابة الرؤية بوضوح أكثر دون أن أبذل مجهوداً كبيراً لمشاهدة كل
الأشياء من السور .

عند البوابة تعجبت وأصابنى قلق كبير فلم يكن بمقدورى أن أصل إلى
المسمار الخشبى الذى يفتحون به القفل .. طرقت بيدي فوق البوابة طرقات
قوية متتالية فقام شخص ما بفتحها .

كانوا جميعاً غرباء فلم يسبق لى رؤية تلك الوجوه من قبل ثم سألت نفسى
: هل هم مجرد عابرين بالمكان جاؤا إلى البوابة من أجل رؤية أوضح ؟

نظروا نحوى بطريقة غريبة لكنهم أفسحوا لى الطريق إلى المقدمة ومما
أثار دهشتى أنهم كانوا يرتدون زى البوليس وطربوشاً أحمر تتدلى منه
الأزرار وكان أحدهم يربط حول خصره طبلة كبيرة جداً حتى قلت أنه سيقع
لكنه كان متماسكاً بجلده الأبيض وكانت نظراته مثبته بإحكام إلى الأمام

وذراعه تلوحان فى الهواء ضارباً بالعصا فوق الطبله وكان قائدهم يرتدى صولجاناً كبيراً يقذف به فى الهواء عالياً فى حركة دائرية ثم يقوم بإمساكه بين يديه وهو ينزل فى نفس المكان وفى إحدى المرات سقط منه دون أن يتمكن من إمساكه فأصبح غاضباً وأصدر أوامره إلى الفرقة الموسيقية بإرتفاع الموسيقى .

لاحظت أن الأولاد الصغار يسيرون خلف الجوقة الموسيقية وعند نهاية الطريق أبصرتهم صغاراً مثلى فسارعت بالحقاق بهم وعند مرورنا بالمكتبة كانت كما رأيته تماماً من فوق كتفى (جوزيف) .. شاهدت أيضاً المحال التجارية وبعض المباني وكثيراً من النقوش المكتوبة مثل : « ستوديو أكينز .. بورتريه لندن » كانت الصور معلقة على جانبى الباب بينما يجلس المصور فوق مقعد خارج الاستوديو واضعاً قدمه اليمنى فوق اليسرى معلقاً الوشاح فوق رقبته وهو يدخل الباب وحين أمعنت النظر فى المصور عرفته على الفور فقد جاء إلى منزلنا يوم مولد (ديبو) لإلتقاط بعض الصور ولم يكن قد خطر ببالي أن أولئك المصورين يملكون ستوديوهات خاصة بهم وإنما يعملون بالتصوير فى المنازل فقط .

أبصرت كلمات محفورة فوق حائط من الأحجار تقول : « عيادة السيدة ماكتر للأطفال » .. إنها السيدة البيضاء ذات القلنسوة المنشأة والتي كانت تزورنا أحياناً فى البيت حاملة حقيبتها المربعة وكنا نعرفها بالسيدة (ماكوتا) .. تمنيت لو أراها مع زائر أو مريض لكننى خشيت ألا أتمكن من اللحاق بالفرقة الموسيقية .

شاهدنا كثيراً من المنازل التي كانت تشبه الكنيسة والنصب التذكاري ولقد تعجبت مرة أو مرتين لإبتعادي عن المنزل ولم أكن أعرف سبباً لذلك الخوف الذي تملكنى فى كل خطوة .

بعد خطوات من عيادة السيدة (ماكتر) كنا قد وصلنا إلى قسم البوليس وتخيلت أن الفرقة سوف تتوقف لكنهم دون أن ينظروا بإتجاه القسم واصلوا سيرهم .. علا صوت النفير وتلألأت الأبواق فى الشمس وعند أول تقاطع للطريق وصلنا إلى لافتة تقول : «السيدة ت . بانچوكو - أستاذة الحياكة - لندن» وعند نفس التقاطع كانت لافتات أخرى تقول : «إلى لافينا» ، «إلى إجبين» ، «إلى إيبارا» .. إتجه الموكب نحو «إيبارا» وعند المدخل كان السوق حيث تنتظر النساء على طول الطريق وأكوام من البضائع المصطفة فوق العربات .. حدثتني نفسى : إن العالم ملئ بأشياء كثيرة !!

كنت قد تأخرت فى السوق حين تخللت أنفى رائحة البطاطا ورأيت الخضروات والسّمك المجفف وجراد البحر واللحوم فوق الطاولة ولولا أصوات الفرقة الموسيقية لما استطعت اللحاق بهم .. كان القصاب ماهراً فى عمله مثل رجل البوليس الذى كان يرمى بالصولجان إلى أعلى ويمسكه بيده وكان يبدو فى كل لحظة وكأنه سيقطع أصابعه لكن السكين كانت تنغرز بين أصابعه فوق الطاولة لتقطع اللحم إلى قطع صغيرة متساوية .

وبعد قليل كان قسم الملابس وأدوات الحياكة ولعب الأطفال وأيضاً حوامل الكتب والأقلام الصغيرة والمطاط والحبر والكراسات ثم توقفت فجأة حين رأيت رأس حيوان محنطة كانت متدلّية من رف خشبى وجمجمة بيضاء بدون

جلد أو لحم وذات تجاويف وثقوب كبيرة فارغة فى الأنف ثم ورق الشجر المجفف وكان قسم آخر يحتوى على مجموعة من الأحجار والعقود وقطع من الحديد والبودرة الملونة فى أكوام صغيرة وثمة زجاجات مملوءة بسوائل غريبة وزجاجات أخرى كان من الممكن رؤية أوراق الشجر بداخلها عرفت أنها مثل التى كان يحضرها أبى وكنا نستخدمها كعلاج حين يشعر أحدنا بالمرض .

كانت أيضاً الثعابين والفئران المحنطة وكان زبائن هذا القسم من النساء العجائز اللاتي كن يجلسن دون خوف حتى أنهن لم يتأثرن بموسيقى الفرقة التى إهتز لها الجميع .

كانت لافتة أخرى تقول : «مدرسة أبيكوتا» فتذكرت (رانسوم كوتى) الذى يعيش مثل أبى فى إرسالية المدرسة .. كان (كوتى) رئيساً وحاولت أن أستعيد ما قاله أبى عن الفرق بين الرئيس والناظر ولم يهمنى شئ سوى أننى كنت متأكداً من زهابى إلى هذه المدرسة بعد إنتهاى من مدرسة القديس بطرس وبمحاذاة الأسوار الحجرية للإرسالية لم أر سبباً لانتظارى .. كان مبنى الإرسالية الرئيسى والطريق الواسع النظيف بإتجاه ذلك المنزل الحجرى ذى الأعمدة المنحنية محاطاً بأشجار «اليوجينفيلايا» مثل فناء الأساقفة فى بيت القس لكنه كان أكثر تأثيراً فى النفس .. وضعت وجهى بين حديد البوابة قائلاً : لماذا لا أدخل الآن وأبدأ تعليمى ؟ .. ثم تذكرت أنه يوم السبت حيث أجازة المدرسة وعندئذ قلت لنفسى : على أية حال فإن يوم الإثنين مختلف وسوف أعود دون صعوبة بعد أن عرفت الطريق .

عندما لحقت بالموكب إعتقدت أننى فهمت الفرق بين الرئيس والناظر .. إن

الرئيس هو من يرأس المدرسة ويشرف عليها مثل الرجل الذى لم يمنعنى من الحصول على مكان يوم أن تسلفت خلف أختى (تينى) خاصة وأنتى ابن الناظر .. إن الرئيس على أية حال ضيف دائم فى منزلنا وتدعوه أمى بالعم وكنا نملك الشجاعة لمناداته بالمثل غير أنتى كنت أفضل إسم (داودو) الذى يلائم مظهر الرجل وصوته العميق وإشاراته المليئة بالطاقة والحركة .. كان يركب دراجة لم يحدث أن رأيتها من قبل وذات يوم إلى جوارنا فى (أكيه) وقع من الدراجة وارتطم بالأرض بينما كنا نطلق الصفير من فوق السور فجاءوا به إلى منزلنا وراحت أمى تغلى الماء وتعد الضمادات والقطن ثم جاءت الممرضة التى دخلت الحجرة وقالت لأبى : يجب أن يذهب إلى المستشفى فالجرح فى فخذه كبير .

سمعت أبى يتمتم بكلام عن الآلة التى وقعت عليه وأصابته بذلك الضرر وبعد خروج (داودو) من المستشفى إشتري سيارة ولم يعد يستخدم الدراجة أبداً .

كان (كوى) ابنه الأول وكنت أنا و(تينى) ندعوه بالعم (كوى) لأنه كان أكبر منا بكثير وبعد تلك الحادثة كان يداوم على زيارتنا فى المنزل ثم عرفنا أن سيارة (داودو) هى السيارة الثالثة فقط فى كل المدينة إذ أن (آلاك) نفسه كان يملك واحدة وكانت الثانية للرئيس الغنى الذى يعيش فى (أوتوكو) حتى أن ضابط المنطقة الإنجليزى لم يكن يملك سيارة .. كان يقود موتوسيكلأ أو يتنقل على ظهر حصان .

شعرت بالتعب وفكرت بالجلوس إلى جانب الطريق لأنعم بقسط من الراحة

.. أصدر الشاويش أمراً بدخول الفرقة الموسيقية إلى الإرسالية وفجأة توقفت
الموسيقى ودقات الطبول وصليل الصنح الصاخب .
إكتشفت عندئذ أنني وحيد تماماً .. إختفت مجموعة الأطفال التي كانت
تتبع الفرقة وتقلدها وتوقف صدور الأوامر ولم أعد أبصر أحداً أو أسمع
صوتاً .. كانوا جميعاً قد إختفوا وبقيت وحدي ثم أدركت عن يقين بأنني لم
أكن أعرف أين أكون .. أدركت فعلاً أنني لا أعرف !! .

كان الشاويش يعدل من كعب حذائه حين تحدث بلغة غريبة إلى شخص ما
كان مختفياً خلف المبنى وعند خروجه رأيته يرتدى زياً أنيقاً وكان أول ما شد
إنتباهي أنه رجل أبيض البشرة والشعر وله مشية تشبه مشية رجال البوليس
.. كان يرتدى حذاء من الكاوتش وزياً كاكي اللون ثم عرفت أيضاً أنه رجل
بوليس .. وقف بخطوات جامدة واستدعى أحد أفراد الفرقة الموسيقية بينما
كان الشاويش يصدر الأوامر إستطعت أن ألتقط منها بعض الكلمات
الإنجليزية القليلة .. تفرق العرض وذهبوا كل في طريق ماعدا الشاويش الذي
بقي مع الضابط الأبيض يتبادلان الحديث حتى شاهداني .

كنت في الحقيقة أحس بتعب شديد وعندما سأهتدي ذلك الرجل الأبيض
وراح يتملقني إنتابنتي فكرة الهرب ..

أشار نحوي وقال شيئاً للشاويش فتلاشت فكرة الهرب إذ لم يكن
باستطاعتي أن أفعل ذلك بالإضافة إلى عدم معرفتي أي الإتجاهات التي
يمكنني الهرب نحوها .. تطلع الشاويش أيضاً نحوي وراح يمشي ناحيتي

وعندئذ كان من المحتمل أن أجرى رغم إحساسى الشديد بالتعب .

قلت لنفسى : يجب أن أجرى .. هاهو الرجل قادم .

لكن الضابط الأبيض أوقفه وتقدم هو بنفسه ودون أن أدرى وجدت نفسى أعود إلى البوابة فابتسم الرجل ورفع كلتا يديه بإشارة تعنى أننى لم أفهم وعندما إقترب منى وأصبح أمامى مباشرة إنحنى إلى أسفل وسألنى بلهجة لم أسمعها من قبل : *? Kini O Fe nivi yen

عرفت الكلمات التى هى لغتى الخاصة لكن طريقة نطقه بها جعلتنى لا أحسها فنظرت إلى الشاويش مناشداً إياه المساعدة ثم قلت : أنا لا أفهم .. ماذا يقول ؟

تلاأت عيون الضابط بوميض غريب وقال : أوه .. أنت تتحدث الإنجليزية!!

أومأت برأسى قائلاً : نعم

- حسناً .. كنت أسألك عما تريد وهل يمكننى مساعدتك ؟
- أريد الذهاب إلى المنزل .

تبادل النظرات مع الشاويش وقال : نعم .. نعم .. وأين المنزل ؟

لم أستطع أن أفهم السبب فى أن ذلك الضابط كان يتحدث من أنفه مما

* أخبرنى بالحرف الواحد .. ماذا تريد ؟

جعلنى أفهمه بصعوبة وكنت فقط أخمن ما يقول .

قلت له : أنا أعيش فى (أكية) .

ثم أضفت : توجد فى (أكية) كنيسة كبيرة خارج الأسوار .

قال ولم يزل يتحدث من أنفه : أه .. أه .. بالقرب من الكنيسة ..

نعم .. وما إسمك إذن ؟

كانت الطريقة التى نطق بها سؤاله عن إسمى أكثر غموضاً لكننى

إستطعت أن أفهم السؤال .

وأجبت : إسمى (وول)

• (وونلى) (هكذا نطق إسمى) .. حسناً .. وما إسم والدك ؟

• الناظر

• ماذا ؟

• الناظر .. هذا هو إسم أبى وأحياناً يكون إسمه إسحق .

ظل يضحك ولم أعرف سبباً واحداً فى إسم أبى يبعث على ذلك الضحك

أما الشاويش فقد خرجت عيناه تقريباً من رأسه واكتسى وجهه بملامح غريبة

تختلف تماماً عن الرجال الذين نقابلهم فى (أكية) وعندما تكلم كان صوته

يشبه التجار الذين يحضرون البضائع إلى منزلنا ويبادلونها بالملابس القديمة

.. كانوا نوى أشكال نحاسية .. كانت الجياد والإبل والأطباق والصوانى

والسلاطين وأيضاً الزخارف والحلى .. كانت الحقائق والشبائب التى

يحملونها تملأ المنزل برائحة الجلد الطازج والشئ الذى لم أستطع نسيانه
أبدأ هو تلك الزجاجات من العطر ذات الأسماء الأجنبية وبعض زجاجات
أخرى كانوا يلصقون عليها ورقة مكتوب عليها : (السودان) وتحتها صورة
لمحارب يرتدى عمامة وإلى جواره جمل راعع وفتاة عذراء تقدم له باقة من
الزهور ..

.. لم يكن فى بستان الفاكهة مايشبه تلك الزهور فقال إسحق : إنهم
يدعونها بلح (dates) لم أصدق إسحق لأننى أعرف أن dates هى تلك
الأشكال والأرقام التى نراها فوق نتيجة الحائط فاعتبرت ذلك مزاحاً منه .

كانت أصوات التجار جميعاً متشابهة وهم ينادون على بضائعهم وهكذا
كان صوت الشاويش الذى سألنى : هل أنت ابن ناظر (أكية) ؟ وماذا تفعل
هنا إذن ؟

ظل الشاويش والضابط الأبيض ينظران نحوى ولم أجد إجابة على
السؤال حتى سألنى الرجل الأبيض : هل أنت تائه ؟

قلت : كنت أسير خلف الفرقة الموسيقية .

أوما الضابط برأسه وقال للشاويش أن يأتى بدراجته .. قدم الشاويش
التحية ومضى لكن شيئاً ما كان يدور بذهن الضابط الذى وضع يديه فوق
كتفى وقادنى إلى المكتب ..

كم عمرك ؟

• أربع سنوات ونصف .

صاح مندهشاً : ماذا ؟

ثم صمت لحظة وعاود النظر إلى وجهي قائلاً : هل أنت متأكد ؟

هزرت رأسي بالإيجاب .

إقترب مني أكثر وقال : نعم .. طبعاً .. طبعاً وقد مشيت، من (أكية) .. من

أى نقطة بدأت ؟

قلت : من النصب التذكارى وكان معى أطفال آخرون لكنهم تركونى .

عند وصولنا إلى المكتب رفعتى بيديه ووضعنى فوق الكرسي وسألنى : هل

أنت عطشان ؟ ثم تناول زجاجة من عصير البرتقال ووضع عليها بعض الماء الموجود فوق الطاولة فشربت حتى آخر قطرة ..

سألنى مرة أخرى : هل تريد كوباً آخر ؟

وقبل أن أجيب كان قد صنع كوباً آخر من عصير البرتقال بالماء وناولنى

إياه فسارعت بشرابه كاملاً كما فعلت مع الكوب الأول .. شعرت بتحسن شديد ورحت لأول مرة أتجول بنظراتي فى المكتب .. مددت قدمى وأثارت دهشتى تلك الأوراق فوق المكتب وكنت أعرف هذه الجريدة التى كانت تأتى لأبى كل إسبوع .

نظرت إلى الرجل باهتمام كبير وقلت له : أنت تقرأ جريدة أبى .

قال بفرع : أية جريدة ؟

أشرت إليها قائلاً : هذه .. هل تقرأها فى وقت الفراغ ؟

• حقاً .. هل قلت أنها جريدة أبىك ؟

• نعم .. إنه يملك واحدة جديدة كل إسبوع .

فتح الجريدة بسرعة ونظر إلى شئ ما بين الصفحات وقال : هل تعنى أن

أباك هو رئيس التحرير ؟

لم أستطع أن أفهم فكرت : إنه يحصل عليها كل إسبوع .

وعندئذ كشر الرجل بوجهه وأوماً برأسه : أعرف .. أعرف .

كان النعاس يغالبنى حين جاء الشاويش بد راجته وعند مفترق الطرق فى

طريق عودتى إلى المنزل أحسست بالشجاعة .. إستلقيت فوق سرير أُمى

بحجرة النوم حيث تنتشر رائحة * Ori والكافور ولم أعد أتذكر أى شئ .

* Ori : رائحة الزبدة (المترجم)

إستيقظت بعد قليل وعرفت أين أكون وشعرت أن معدتى تتلوى من الجوع فقفزت من السرير إلى المطبخ وعندما فتحت الباب فوجئت بكثير من الناس وكانت الحجرة الداخلية الأمامية مزدحمة بالكبار الذين يتبادلون الحديث بإهتمام .. توقفوا فجأة وساد السكون عندما دخلت ثم تطلعوا جميعاً نحوى وسألت نفسى : ماذا يحدث ؟ .. لماذا كل أولئك الناس ؟

وفى ظل ذلك السكون قلت : إننى جائع .

كان كل ما يدور فى ذهنى أننى جائع .. ذلك كل ما فى الأمر .

أصابتهم الدهشة وفتحوا أفواههم عن آخرها ثم أعلنت زوجة بائع الكتب وهى تضرب قبضتها بالأخرى فى دهشة : هل تسمعون .. إنه جائع !! تبادلوا اللغو والهمهمات ولم أفهم السبب فى أن جوعى يبعث على كل ذلك الإهتمام والإثارة .

كان الوقت مساء ولم أكن قد تذوقت الطعام منذ الصباح ..

قال أبى مبتسماً : حسناً .. إنه لمن الطبيعى أن يكون جائعاً بعد أن مشى من (أكية) إلى (إبيارا) .. أليس كذلك يا (وول) ؟

إرتميت بين أحضان زوجة بائع الكتب التى صاحت فى وجه أمى : أحضرى الطعام لطفلى .. أوه .. ماما لماذا تتركينه جائعاً ؟ .. قالوا لك بأنه جائع ولم تقفزى على الفور لتأتيه بالطعام .. سوف يأتى معى إلى منزلنا

وأقدم له الطعام .

قبل أن أفهم ما يحدث رفعتنى إلى ظهرها وهى تتناول عباعتها ثم راحت تغنى وترقص وفجأة أصبحوا جميعاً يغنون معها بأعلى أصواتهم .

... كانوا يغنون ويضحكون لكن شخصاً واحداً كان يجلس فوق مقعده دون أن يتحرك أو يغنى .. إنها أمى التى كانت جالسة وذقنها فوق قبضة يدها دون أن تفعل شيئاً سوى التحديق فى وجهى وهى تهز رأسها من وقت لآخر متنهدة .

قالت زوجة بائع الكتب لأبى : إنظر لها .. كانت تتمنى لو إلتهمته حيوانات (أبيكوتا) المفترسة .. ها أأم .. إعطنى العصا من فضلك .

ضحك أبى وقال : فكرة طيبة ..

تناول العصا من مكانها بجوار مقعده فى الركن وأعطها لزوجته بائع الكتب فسارعت أمى بالجرى فى الردهة .

كانوا جميعاً يتمتعون بروح عالية وكان غريباً بالنسبة لى أن أرى الرجال والنساء يقفزون ويمرحون فى المنزل مثل الصبية الصغار .

من فوق ظهر زوجة بائع الكتب شعرت مرة ثانية بالنوم فلم أعرف متى سأتناول طعامى ..

إستيقظت فى صباح اليوم التالى من فوق سريرها مبتهجاً لا أعانى أية

متاعب وجلسنا إلى مائة الإفطار الكبيرة وأبدأ لم أستطع أن أتذكر شيئاً مما
حدث بالأمس .. ربما كان حلماً لكنه كان مختلفاً عما حدث لى من قبل .

(٤)

- جاهدت فى إختطاف الأسفنجة من يد (نوبى) التى كانت تعاود رش الماء فوق جسدى وتدلكنى باللوف الخشن والصابون .. قاومتها فى البداية ودفعت يدها بعيداً عنى مرة إثر أخرى ورغم محاولاتى الجادة فى إبعادها عنى إلا أنها لم تفعل وظلت ترش الماء .

قلت لنفسى : أهـ لو أنها جوزيف !!

كانت عيناي غارقتين بالصابون فقامت بإزالته من فوق عين واحدة أبصرت بها (نوبى) واقفة ورائى تنظر نحوى بإستياء وتقول : هل ستساعدنى فى تنظيفك أم لا ؟

قلت : ولكن دعينى أغسل وجهى بنفسى .

ضحكت بسخرية وقالت : أنت .. ها .. نعم .. فلتضع يدك إذن فوق رأسك .

فعلت ماطلبت منى فقد كان واضحاً أنه نوع من الاختبار إذا ما نجحت فيه فسوف تتركنى أغسل وجهى .

وضعت ذراعى فوق قمة رأسى محاولاً قدر إستطاعتى أن أفعل مثلها .. كانت أصابعها تداعب حلمة أذنها اليسرى ثم أخفت الأذن تماماً بقبضة يدها وقالت : والأن هل ترى الفرق ؟

• وهل لا أفعل مثلما تفعلين ؟

ضحكت بسخرية أكثر : ألا تلاحظ أى فرق ؟

• ما الخطأ فيما أفعل ؟

• أنا لا أتحدث عن الخطأ الذى تفعله وإنما عن الذى لا تفعله أبداً ..
إنظر إلى يدي .. إنها تصل إلى رأسى وتغطى هذه الأذن بكاملها .. هل ترى؟ .. والآن إنظر إلى يدك التى لا تصل إلى قمة رأسك .. هذا الفرق ضرورى لمساعدتك فى حمامك أم أنك تعتقد بأنك صرت ولداً كبيراً لأنهم سمحوا لك بالذهاب إلى المدرسة .. هنا فى المنزل مازال الكثير لتتعلمه إذ أن المدرسة لا تستطيع أن تعلمك كل شئ .

تقدمتنى وهى تمسك بالأسفنجة فى يدها وتقول : والآن .. تعال

ناديت على جوزيف بصوت عال وقلت بإصرار : جوزيف .. دعنى أغسل وجهى .

قالت : أخبرتنى ماما أن أقوم أنا بحمامك .. هذا كل ما أعرفه .

وضعت الكوز بيدها اليسرى فى الدلو ثم جرفت الماء واتجهت ناحية رأسى وظللت أنحرف برأسى بعيداً عن الماء .

• إنظر إلى ما تفعل .. أنت تبدد الماء .. هل تعرف ما ستفعله ماما إذا قلت لها ؟

تحركت نحو ركن الحمام وأدركت بعد فوات الأوان بأننى واقع فى مصيدة ورحت أجاهد من أجل حياتى .. كان الكوز بما يحتوى من الماء يطارد رأسى وحاولت إبعاده عنى وأنا أتصارع مع (نوبى) فابتلت بالماء مما أثار غضبها فقالت : أترى ما فعلت .. إن الرطوبة ستصيببنى وتكون سبباً فى إصابتى بالبرد .

أمسكت برأسى بقوة وهى تدلك وجهى ولم أستطع هذه المرة أن أتخلص منها وعندما حاولت أن أعضها وضعت الإسفنجة فى فمى وعندئذ كررت محاولتى اليائسة ولم أجد بديلاً عن ضربها برأسى فى معدتها .

سمعتها تصرخ : O pa mi o*(1)

ثم سمعت صرخات أخرى : Tami yen ?*(2)

ظل الجميع يجرى فى المنزل فى حالة من الفزع مردين : من هو القاتل؟ مسحت بيدي الصابون بسرعة وكانت ماما هى أول ما رأيت .. كانت تجرى عبر الباب المفتوح وتهز رأسها من جانب إلى آخر فى حيرة معتادة لكنها كانت أكثر إرتباكاً .

قلت لها خائفاً : لقد إنتهيت من حمامى .

* (1) O pa mi o : القاتل

* (2) Tami yen : مَنْ يكون

ضربتني برأسها : لكن (نوبى) تشكو منك لأنك ضربتها برأسك فى معدتها وكفالك كذباً .

• نعم ياماما لكن شيئاً لم يحدث لها وقامت على الفور

• وذلك الصراخ الذى إنتشر فى أرجاء المنزل .. ماذا تريد أيها الولد .. هل ترغب فى إثارة الرعب والفرع لدى الجميع ؟

قالت (نوبى) : لا .. ماما .. إنه فقط لم يتركنى أنظف وجهه .

قلت بنبرة تحدٍ : بل قمتِ بتنظيفه ولم تفعلى شيئاً سوى ذلك .

كانت (تينى) ما تزال فى إنتظار حمامها حين بدت على وجه أمى تلك المسيحية المتوحشة إبتسامة رقيقة جعلتنى أشعر بالطمأنينة .

قالت لنوبى : حسناً .. إستدعى (تينى) وعلى أية حال فإنهما سيكبران عما قريب ولن يحتاجا لأى مساعدة فى الحمام .

إنتهزت الفرصة قائلاً : نعم .. نعم .. لست فى حاجة لمساعدتها أو مساعدة جوزيف .

• ولكن يجب أن تستحم أمامهم حتى يتأكدوا من أنك تفعل الصواب .

أومأت برأسى : إنه شئ بسيط للغاية وأستطيع بمفردى دون مساعدة أو وجود أحد .

ثم أضفت : أنا حقاً لا أحتاج لأحد فذات مرة قمت بتدليك جسدى حين كان جوزيف مشغولاً وعندما شاهدنى بعد ذلك قال بأننى نظيف جداً .

إستطردت ماما : أوه .. جميل لكننى لا أفهم خوفك هذا من الماء وأنت الذى وُلدت فى يوليو .

قلت معترضاً : كنت أزيل بقية الصابون ولم أكن خائفاً من الماء .

• لا .. ليس كما تزعم .. إن الصابون مازال عالقاً فى أجزاء كثيرة من وجهك ولم يلمسه الماء بعد .

ملأت الكوز بالماء وبسرعة رحت أصب الماء فوق رأسى وكنت أقاوم لسعة الماء فى وجهى وأتتنفس بصعوبة .

قالت أمى لأبى فى جلسة الإفطار : أنا لا أعرف ماذا يفعل إبنك هذا بالماء .. إنه لا يحسن إستخدام الماء .. هل تعرف ما حدث هذا الصباح ؟

كانوا عادة يتحدثون وكأئننى غير موجود وكانت هذه إحدى عاداتهم الغريبة وهكذا كان كل الكبار الذين يتناقشون وكان الصغار غير موجودين .

وكنت أهرز رأسى مستنكراً فقد كانوا يفتقدون ما نحس به نحن الصغار

قال إسحق وقد لاحظنى : أوه .. إن (وول) يهز رأسه .

ضحكت أمى وقالت : هل تنكر ما حدث حين كنت تصب الماء بنفسك فوق

رأسك؟

• لا .. ولكننى لا أخاف الماء لأننى أحب الخروج أثناء المطر .

قذفت بملعقتى فى الإناء فتناثر الطعام وقالت أمى تحذرنى : إنتبه أيها السيد المحامى .. لا تبدد طعامك .

• لن أكون محامياً .. سوف أتزوج الأنسة (أودفوا) وسوف أصبح قساً .

• أوه .. الأنسة (أودفوا) .. ماذا حدث للعمه (بوزير)؟

شرحت قائلاً : لم تأت لزيارتنا وكانت الأنسة (أودفوا) تقضى وقت فراغها معنا .. إنها لطيفة جداً .

كان إسحق يتأمل ويفكر ثم قال : نعم .. قد لا تخاف المطر لكن ذلك لا يعنى أنك لا تخاف الماء .

كانت أمى تلاحقنا بنظراتها وهى تعد نفسها للذهاب إلى الدكان حين قالت : أوه !! فقد كانت تعرف أن الجدل سيستمر وقتاً طويلاً ومن الأفضل لها أن تغادر .

قلت لأبى مستفسراً : أليس المطر هو الماء ؟

• إن المطر يعنى الماء لكن الماء لا يعنى بالضرورة المطر .

أومات أُمى برأسها فى وقار ممتزج بالدهشة ثم تناولت الشنطة من حجرة نومها .

قلت بإصرار : لكن الأمطار لا يمكن أن تكون بغير مياه .

أوماً أبى برأسه : حقاً .. ولكن يمكن أن يوجد الماء بدون أمطار .

• كان الماء فى البدء يأتى من الأمطار .. أليس كذلك ؟

• أه .. أنت مخطئ .. إن الماء هو الذى يسبب الأمطار .

وعندئذ تذكرت الكتاب المقدس .. ماذا يقول الكتاب المقدس ؟ .. ألم يخلق الله كلاهما منفصلاً عن الآخر ؟

قال إسحق : وهو كذلك .. دعنا نرى .. اذهب واحضر الكتاب المقدس من الصلاة .

تسلقت الكرسي وكنت شغوفاً لمعرفة ما يقوله الكتاب فقد كان الجزء الذى تعلمناه فى سفر التكوين وكنا نحفظه عن ظهر قلب لا يشتمل على ما يفيدنا فى هذا الموضوع .

عدت إلى حجرة الطعام ومعى الكتاب الذى ناولته لأبى ثم رجعت إلى المائدة وجلست إلى جواره فوق مقعد أُمى .. كان طعامى قد نفذ وأبصرت طبقاً آخر ما زال يحتوى على الطعام .

إبتسم أبى دافعاً الطبق ناحيتى وقال : ستجد أن الكتاب المقدس يتحدث عن جزء واحد من القصة فقط .. خلق الله الماء والأمطار وجعلهم بطرق خاصة يتفاعلان مع بعضهما البعض وهذا ما ندعوه بقوانين الطبيعة .

كان ذلك الكلام تعقيداً للأمر لا مبرر له فرحت أمتص الهواء من شفقتى كما لو أننى أقضمه مثل *ataro do الأخضر الطازج وفجأة تذكرت وقلت : وإذن .. فلماذا تقوم المدينة كلها بالصلاة عند سقوط المطر ؟ أفلا يعنى ذلك أن الله يخلق الأمطار وقتما يجب ؟

تأملنى إسحق فى هدوء وقال : تذكر بأن الله بعد أن يخلق الأشياء على الأرض ويحدد قوانين العمل الخاصة بها يستطيع كخالق أن يتدخل ويعيد ترتيب الأمور كما أنه يستطيع فى الحال الإسراع بعمليات الخلق أو الإبطاء فيها .

خرجت المسيحية المتوحشة من حجرة نومها حاملة الحقيبة لتودعنا وتذهب إلى الدكان وكانت قد سمعت ما قاله إسحق ثم إقتربت وهى تهز رأسها وتتعجب كعادتها دائماً لقدرة إسحق على الصبر غير المحدود . وقالت له : ولكن ياعزيزى هل أنت متأكد بأنه قادر على فهم كل هذا الجدل الذى تثقل به عقله الصغير ؟

بدا لى أن المناقشة ستكون أكثر إثارة بعد مغادرة أمى ولم أكن أعرف أن مناقشة مثل هذه الأمور تبعث اليقظة فى نفس إسحق وتجعل لسانه يرقص .

* ataro do : فلفل رومى طازج (المترجم) .

سحبنتى أُمى من فوق الكرسي وقالت : إحمل هذه .

أعطنتى حقيبة وأدركت على الفور ما تعنى .. إنه يوم السبت حيث أجازة المدرسة وهذا يعنى أن أشارك بالعمل فى الدكان .

قلت بإحتجاج : عندى واجب لابد أن أنتهى منه .

قالت وكأنها لم تسمعنى : هات الواجب معك إلى الدكان .

وضعت الحقيبة على الأرض واختفيت بين كتبى فقالت لأبى : لايجب أن تشجعه كثيراً ياعزيزى .. إنه مشاكس عنيد .. أتعرف ماقاله لخادم الكنيسة يوم الأحد الماضى أثناء صلاة مابعد الظهر ؟ .. كان يثرثر مع صديقه الجديد ابن (إيدون) وعندئذ زجرهما خادم الكنيسة .. هل تعرف بماذا أجاب إبنك ؟

• ماذا قال ؟

• كانت الكنيسة كعادتها فى أيام الأحاد مزدحمة وكانوا ينشدون التراتيل ويؤون الصلاة حين أجاب إبنك أمام الجميع بأنه لم يكن يتكلم أو يثرثر وأن على الخادم إثبات ذلك .. هل تتخيل ؟ على خادم الكنيسة أن يثبت ذلك !! .. هذا هو إبنك .. أى نوع من الأطفال يكون هذا الولد ؟

توقفت خلف الباب مرتعشا .. إهتم إسحق بأمر المتاعب التى أسببها فى الكنسية أو مدرسة الأحد وقال للمسيحية المتوحشة بأنه كان - أجلاً أو عاجلاً - سيعرف .

ظللت بلا حراك مثبتاً عيني في فتحة الباب وأنا أستمع .. كان يقول :
حسناً .. أه .. إنه لشيء صعب أن يقوم خادم الكنيسة بإثبات ذلك .

تنهدت أُمي : أعرف .. أعرف .. أنت دائماً تدافع عنه عندما نتحدث
بشأنه ولست أعرف لماذا أضايق نفسي بالقول لك .. ها هو قد إختفى من
أمامك .. أين هو ؟ .. وهل أخذ الحقيبة معه ؟

• ها هي فوق مقعدك .

دفعت بالخدمة أمامها وقالت : دعينا نذهب .. سوف أتركه ليضايقك
بأسئلته الصعبة فهو أيضاً يضايقني في الدكان بأسئلته الحمقاء مثل : لماذا
بطنك أكبر من بطن بابا ؟ .. هل أنت حبلى ؟ وأشياء أخرى لا أخبرك بها .

ضحك أُمي ملء فمه : حقاً .. متى كان ذلك ؟

• إسأله هو .. إنه إبنك .. دعني أذهب فالزبائن في إنتظاري .

دفعت الخادمة بقوة وخرجت من المنزل بينما بقيت في مكاني فلم تكن
ضحكات إسحق تعنى عدم توبيخى .. ظل فوق مقعده ومن شرخ صغير
بالباب كنت أرى جزءاً صغيراً من ظهره .. كان يسترق السمع لخطواتي وهو
جالس في مكانه ممسكاً بفرشاة الأسنان .. تسمرت في الأرض وكنت أتنفس
بصعوبة وأتوجه بدعائي إلى الله وكان قدوم أى شخص لزيارتنا هو الشيء
الوحيد الذى ينقذنى .

أصابني السعال فأعلنت عن وجودي وقال أبى : (وول) !

• نعم سيدى ..

وفى نفس اللحظة سمعت أصواتا ثقيلة بالخارج فوق الرصيف .. كان صوت أمى مع صوت آخر .

دخلت أمى وقالت لأبى : أما زلت بالمنزل يا عزيزى ؟

• نعم .. ما زلت هنا .

نظرت إلى الخارج وقالت : أدخل .. أدخل .. تفضل بالجلوس .. سوف أستدعيه للقائك . كنت أضغط نفسى خلف الباب وكان حضور شخص ما هو ما صليت من أجله ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى ألاحظ فيها أن الله له عادة غريبة فى ألا يستجيب لصلوات الإنسان أبداً أو يستجيب لها بطريقة غير مباشرة .. يا له من إله طيب ..

قالت أمى : قابلت السيد (أد يزينا) بالطريق وسألنى عن إمكانية أن يلقاك هذا المساء فرأيت أنه من الأفضل أن يقابلك الآن .. هل هذا حسن ؟

أجاب أبى : هل جاء بخصوص الوظيفة مع (ساينود) ؟

• وهل هناك شئ آخر يفكر فيه ؟ إنه يأتى إلى الدكان ويزعجنى فأقول له أن يلقاك .. هل أجعله يدخل ؟

• لماذا أحضرته ؟

• أنا لم أتوسل إليه كما أنه لم يشأ أن يأخذ نقوداً .. أخبره أنت يا عزيزى
فلقد قلت له مئات المرات لكنه لم يقتنع .. أخبره أنت بنفسك .

توجهوا نحو الحجرة الأمامية وفى غفلة منهم تسللت إلى حجرة الطعام
وتوقفت أمام طبق إسحق ثم ضربت كسرة الخبز فيه ووضعتها فى فمى
واتجهت إلى حوض الغسيل الواقع على يسار الحائط فى مواجهة حجرة
الطعام لأمسح شفتى وفجأة تلقيت ضربة قوية فى جانب رأسى وصوت يقول:
رائع .. شئ رائع .

كانت تقف فوقى متأججة حين إستطردت : كنا نعتقد أنك تخليت عن هذه
العادة.

كانت المسيحية المتوحشة تملك موهبة عظيمة فى الظهور من حيث لا تدري
وكانها كانت تجيئ من تحت الأرض .

- كان (اديزينا) قد فقد وظيفته مع (ساينود) وعرفت أنه لن يعود .. غادر
المنزل مثل كثيرين قبله باكياً ومتأثراً وكانت عيناه وهو ينظر إلى أمى تلتمسان
الرجاء الأخير .

قالت للرجل : أنت تعرف طبعاً أنه قرار الناظر ولا أستطيع أن أجعله
يتصرف بما يتنافى مع ضميره .

- تساقطت أوراق شجرة « البواباب » التي كنت أظننها حصناً أزلياً مع مرور الوقت ولم يبق منها سوى بعض الفروع القليلة التي كانت تنشر ظلالها المتفرقة لكن المسافة بين المنزل والكنيسة كانت ما تزال مفروشة بأشجار المانجو وكانت شجرة « الأوميجي » في فناء الكنيسة والنصب التذكاري خارج أسوار الكنيسة مازالا قائمين .

كان برج الكنيسة بأسطحه الصدئة من كل الجوانب موازياً للطريق المنحدر بإتجاه « أبيريكودو » ثم « أكية » ، « إيباربا » ، « أتوكو » وأخيراً عبر التل إلى « موكولا » .

قبل « ابيركودو » كان ميدان « هوزا » وكانت خلية النحل بأعشاشها ذات اللون البنى تحيط المنازل وبالسير نحو الحائط والبوابات الواسعة لإصطبل الرئيس وقبل قمة الطريق كانت أسواق « إيباربا » المتشابهة تبدو مختلفة في جانب التل :

.. إن شيئاً من ذلك لم يتغير .

- كانت شجرة « البواباب » والمنازل المضيئة ، فناء اللعب ، الطرق والممرات وحتى « جونا » هي أكثر الأشياء التي نتعامل معها ونحبها .. كان المدرس ينظر متأملاً عبر شباك مدرسة الأحد ليرى تلك الصخور المتسلقة القريبة وبعيداً عن أنظارنا في الجانب الآخر من مبنى المدرسة كانت الصخرة

الكبيرة التى ندوس عليها بأقدامنا وكأنها تفرش الأرض وتغطيها .

قال أحد الصغار فى حجرة المدرسة : إن الحوت أكبر من الصخرة .

أوماً آخر برأسه موافقاً : نعم .. إن الحيتان هائلة وضخمة وهى أكبر من المنازل .

• وحتى أكبر من السفن .

• وأكبر من الطائرات .

إمتدت يد أحدهم نحوى بقطعة من الورق فقرأت : إن منزل أبى أكبر من الحوت .

لم أهتم به لكننى أجبت : كذاب .

ولم أسمع إجابته فقد شعر بصدمة كافية .

لكن " جونا " كانت صخرتى الخاصة التى يتحدثون عنها فى مدرسة الأحد .. كانت الأستاذة تتباهى ببعض الأفكار الخاطئة عن الصخرة " جونا " التى أحبها كثيراً وتربطنى بها علاقة سرية خاصة .. أبصرت تعبيراً غامضاً فوق وجه الخادمة فى منزلنا حين ربطت الأستاذة بين " جونا " والكتاب المقدس .

كانت الحكايات حول " جونا " غامضة ومعقدة مثل حكايات الكتاب المقدس

وإختلاط الطين بالجسد العظيم باستخدام مياه المطر التى تتجمع فى شكل كرات بيضاوية كثيرة حتى أننى تساءلت ذات مرة : من الذى يصنع كل هذا ؟

لم تكن تلك الكرات البيضاوية الكثيرة تلامس "چونا ... الجميلة"والتي لم تكن هى الصخرة الوحيدة فى الإرسالية .. كانت ثمة صخور أخرى تنمو فوقها أشجار البامبو وكنت أسير من المدرسة إلى منزلنا متسلقاً جوانبها المنحدرة .. كانت صخوراً ناعمة ومائلة إلى أسفل تنزلق من فوقها ونصرخ لكن "چونا" كانت مكشوفة وعارية من الأشجار .. كانت "چونا" حالة خاصة ومتفردة .

قالت الأستاذة : كانت "چونا" فى بطن الحوت .

لكننى لم أصدق .. كان ذلك القول من نسج الخيال .

- بجوار صنوبر المياه كانت شجرة الجوافة المطلة على مربع القس متمددة فوق الأرض كأنها تجلس القرفصاء ليس ببعيد عن مدرسة الأطفال .. كانت تجود بكثير من ثمارها وكان لونها أخضر داكناً وأوراقها ممثلة ويتدلى أحد فروعها نحو الأرض .. كانت تزدهر فى موسم المطر فقط وعند إنتشار السحب الكثيفة كانت تعلن عن وجودها بين عالم النبات والشجر بانتاجها الوفير كما كانت الرطوبة تملأها بالحياة ولم تكن العصافير تشعر بالأمان مثلما تشعر به فوقها .

- ذات صباح ساد فيه الغسق تسللت خارج المنزل كى أراقب (جوزيف)

أو (نوبى) وهما يسيران بمحاذاة الأحجار التى تحدد الطريق ولم أكن بقادر على رؤية ما بين الفروع .

تم تسميد (نوبى) مثل الآخرين غير المسيحيين الذين جاؤا إلى الإرسالية فأصبحنا نناديها باسمها المسيحى (مارى) .. كانت تمشى فى الطريق الواسع فى إتجاه الفسقية حيث تعرف المكان الذى نلعب فيه ونضرب الحصى فوق الطين أو نتطلع إلى البط .. كانت تسير وهى تمسح جبينها بطرف لفافتها وتنادى على إسمى .. تعثرت طوال الطريق محاولاً اللحاق بها .

نظرت نحوى بإهتمام وقالت : إن ماما سوف تجلدك فقد توقفت الأمطار منذ ساعتين وكنا نعتقد أنك موجود بالمنزل .

* لكننى أخبرت (جوزيف) بأننى ذاهب إلى المدرسة .

* نعم .. لقد قال لها ذلك لكنك تأخرت فى العودة فظلت ماما واقفة فى الركن خائفة من إصابتك بالحصى .

كان مجرد التفكير فى سوط أمى يصيبنى بالإرتعاش .

- كان 'إيزارا' هو منزلنا الثانى حيث ولد إسحق الذى جاء أيضاً من أب وأم .. كان المنزل ذا عوارض خشبية محترقة وسقف مكشوف وسجاد من الوبر وحصير وثمة أشياء فى أركان السقف ملفوفة بأوراق من الجلد ولم يكن من شئ يبعث على الحيرة والإرتباك سوى تلك الحبوب والنشوق التى

يتعاطونها للتأثير على مشاعرهم .

كان "إيزارا" نوعاً مختلفاً من البيوت التي يظهر فيها الزمن من كل أركانه وتعود معه خطوات كثيرة إلى الماضي .. كل ما تقع عليه العين كان يساعد في معرفة الأجداد بما في ذلك الصور المعلقة وذلك الوشم الأخضر فوق أيادي وأجساد النساء .

كنا نذهب إلى هناك كل عام جديد لنشوى الخنزير ونستمتع برائحة الدخان المنبعث من الخشب المحترق والتراب الأحمر .. كان السقف من القش وكنا نشرب الخمر المعتقد من البلح وتتناول طعاماً شهياً وكان أبى يدخن من عوارض الخشب كنوع من إزالة النحس وكانت النساء تتدثر بشالات سوداء ذات أشكال مختلفة .

كان النمل ينخر الخشب وفجأة سقط السقف فوق رؤوسنا لكن أحداً لم يكن يهتم بذلك النمل المنتشر في المكان .. كان الصندوق تحت السرير مهجوراً وكانت الأوراق بداخله متأكلة من النمل الذي كان يختبئ في شقوق السقف والأركان .. كان أبى في زيارته الليلية يعمل على إصلاح السقف قدر استطاعته ويتذمر من زيارتنا في العام الجديد ثم يقوم بإخفاء صناديقه الغامضة حتى إنتهاء الزيارة .. كنت أحس بغيظ شديد لأننى لم أتمكن من معرفة ما تحتويه تلك الصناديق لكننى استطعت أن أصنع بها ثقباً .

- كان إسحق في جولات الصيد مثل (جوننا) وشجرة الجوافة وأجراس

المنزل ذا شخصية مختلفة يحمل بندقيته نون أن يتحدث أبداً وأنا أسير خلفه
متتبعا إياه وهو يلتقط الطيور التي أطلق النار عليها وكالعادة لم يكن الأمر
يخلو من مضايقاتي وأسئلتى الكثيرة .

سمعته ذات يوم ينادى : (وول) .

لكننى قررت ألا أذهب معه للصيد .. إنه يصيبني بالتوتر وأنا أقتفى أثره
.. هرعت إلى الخارج قبل أن يبدأ النداء مرة ثانية وما هى إلا لحظات قليلة
حتى كنت راقداً فوق "جوننا" وأنا ألهث ناظراً إلى الطريق الذى سيمضى منه
فى طريقه للصيد .

قالت أمى لإسحق : إبنك هذا .. هذا الولد لا يتوقف عن فعل الأشياء التى
تؤدى إلى موته .

كان ذلك هو إعتقاد أمى الراسخ وأحد أحلام اليقظة والأفكار السوداء
التي تنتابها وكانت تنتهز كل فرصة لتخبر إسحق بوضع حد لسخافاتى .

سمعتها تقول له : أخبرتك من قبل ولن أكرر ما قلت .

عرفت القلق فقد كان يبدو أن المسيحية المتوحشة على صواب وكان حادث
شجرة الورد الصغيرة هو ما جعلنى أهتم بشكاواها إلى أبى .

كانوا جميعاً يساعدونها وهى تعد الطعام بإحضار الملاعق والفناجين وإذا
ما نضج ما فى الإناء فإن فريقاً منهم كان يقدم لها المغرفة للتقليب وحين لا

يجدون شيئاً يكلفوننى به كنت أهرب للقراىةفى الحجرة الأمامية أو للقيام
بواجباتى .. كانت مشاركتى فى واجبات المنزل قليلة بالنسبة لما تقوم به
(تىنى) أو أولاد العم الذين يقيمون معنا .

كانت مشاركتى الخاصة التى إخترتها بنفسى هى الإعتناء بحديقة
إسحق فكنت أرش النبات بالماء وأشذب الفروع الميتة وأزيل العنكبوت المتراكم
فوق الأنسجة مع الإعتناء بالزهود حتى تصبح فى أحسن أشكالها غير أننى
كنت قاسياً مع الماعز التى كانت تتجح كثيراً فى إختراق الزهور .. كنت أغلق
البوابة فى وجوه الماعز وألقى عليها الأحجار والهرافات حتى أننى ضربت
أحداها ذات مرة بشدة فرقدت على الأرض لاهثة وهى تنزف فى الطريق
الضيق المؤدى إلى البوابة فقد كان الحجر أكبر كثيراً من الذى نستخدمه
دائماً .

كانوا جميعاً يفارون من عملى فى الحديقة باستثناء أبى الذى تجاوز تلك
الغيرة .

ذهب المدرس (أود جيمى) يوماً ما إلى المدرسة واضعاً وردة قرنفلية فى
فتحة سترته فتعجب أبى لتلك الوردة ثم سأله بطريقة عادية عن كيفية حصوله
عليها .

قال المدرس : أوه . . من حديقتك بالطبع أيها الناظر

قال إسحق دون أن يغير من لهجته : أهـ .. أعتقد أننى أعرفها .. أنت

تحب الزهور كما أرى .

* نعم .. أنا أحب الزهور ياسيدى ويجب أن أتقدم لك بالشكر .. أنت تملك حديقة رائعة لم أر مثلها من قبل .

* وكيف عرفت أنني أملك حديقة ؟

* كنت ماراً بالطريق ياسيدى وكانت البوابة الخلفية مفتوحة فرأيت الزهور الجميلة ولم أصدق عيني .

كنت أنا الذى تركت البوابة الخلفية مفتوحة مما أثار غضب إسحق الذى شدنى من أذنى وحاول أن يرفعنى منها لولا أن تحركت المسيحية المتوحشة بسرعة شديدة وكانت هذه إحدى المرات القليلة فى حياتها التى تتدخل فيها فى قرارات إسحق فى المعاقبة وراحت تفصل أذنى عن يده وتدافع عنى قائلة : عزيزى .. لابد أنه كان يحلم .. أه .. أليس هو الذى يقضى كل وقته فى العناية بالحديقة؟ .. إن عقله لم يكن معه .

تنفس إسحق بعمق وبدا هادئاً .. ألقى نظرة أخرى إلى النبات المهشم ثم هز رأسه متحسراً ومضى بعيداً .

تنهدت أمى وقالت لى : عليك بعمل شئ قبل أن تقتل نفسك أو تشعل الحريق فى المنزل .

-كنت أرقد فوق الحصيرة متظاهرا بالنوم ثم رحت أبدد وقت الصباح بمراقبة إسحق من النافذة .. كان ملصقاً على الخريطة المثبتة فوق الحائط بالقرب من المرأة بعض الصور للألعاب وتمارين رياضية مختلفة تلك التي يمارسها الرجال نوو اللون الأبيض .. كان إسحق يفعل ما فى وسعه لتقليد تلك الألعاب وكانت حركاته النشيطة تصدر أصواتاً ما .. ظل يتنفس بعمق وهو ينحنى حتى يلامس إصبع قدمه اليمنى ثم يلف بجسده مرة أخرى إلى أصبع قدمه اليسرى ثم يفتح يده ويقبض عليها ويرفع ذراعه الأيمن ثم الأيسر وكأنه يحمل شيئاً ما .

تبلل بالعرق ثم تناول الفوطة .. كانت التدريبات قد إنتهت ومن فوق عتبة النافذة أمسك بالفرشاة والكوب فتحركت الفرشاة فى طريقها الصحيح نحو الأسنان التى يدعكها من الداخل فى المقدمة والأركان وهو يبصق فى الكوب بينما كان - من وقت لآخر - يرد على تحية العابرين بجوار النافذة.

شعرت أن ذلك يكلفه جهداً كبيراً .

بعد لحظات تناول الفوطة وراح يلف نهاياتها حتى تكومت فوق بعضها ولفها حول خصره ثم عاد فربطها حول رقبته وخرج من حجرة النوم .

كنت أتتبع صوت الشبشب الذى يرتديه فى جولته بالمنزل والفناء الخلفى .. توقف ليرى زهوره وينزع البراعم الذابلة وسمعته ينادى شخصاً ما

لإحضار المقص للتخلص من الفروع الذابلة .. كان واقفاً فى هدوء وسط نباتاته محققاً إلى الزهور .

كان البعض من سكان المنزل بما فيهم الخادمة الكبيرة يبذلون حسانرهم وهم نائمون بالليل فكانت رائحة البول منتشرة دائماً فى الهواء ومن تلك الرائحة كانوا ينقلون الطفل الذى يبول من حصيرته على الأرض إلى السرير ذى العوارض الأربعة حيث تمتص المرتبة تأثير المثانة ويضعون بعد ذلك المرتبة فى الشمس طوال اليوم لكنها لم تكن تفقد تماماً تلك الرائحة اللاذعة المنتشرة فى الحجرة .

كان سرير أمى أكبر مرتين من سرير إسحق أو هكذا كان يبدو بالعقد النحاسية الكبيرة فى عوارضه الأربعة والكرات النحاسية الصغيرة فى أعلاه وأسفله .. كانت تختفى آثار أقدامنا من الدرابزين مما يجنبنا العقاب ولم تكن نتوقف عن اللعب بكرات القصدير حتى تقع ونفتقدها لكنه كان بمقدورنا الحصول على غيرها من المخزن الكبير .

كانت الأعمدة الأربعة بعقدها المتلائنة وما يحيط بها من كساء فاخر هى ما نتوق إليه وكانت الأريطة مكومة تحت السرير وكذا سلال الصابون وعلب السردين الصفيح وعلب السكر والشماعات والكافور الدائرى والمربع الشكل وكانت الطرود مربوطة بأوراق الشجر ثم كان الصابون المحلى وأباريق الحلوى والأشياء التى كانوا يصنعونها فى المنزل مثل النعناع الذى يضعونه فوق عتبة النافذة فى أوراق غريبة .

وفى الركن كانت الكتب المقدسة وكتب التراتيل وبعض الكتب القديمة وأيضاً صفائح الكيروسين وزيت النخيل وزيت البندق وثمة أوان مطلية بالخزف تحتوى بداخلها الفول والقمح المجفف .

عندما كان يأتى أبى إلى هذه الحجرة الغربية للبحث عن شئ ما فإنه كان يعود من حيث أتى وهو يهز رأسه بياس وصبر .

كان صندوق الخزانة تحت السرير أو فى أحد الأركان مليئاً بأشياء من نوع مختلف .. علب المجوهرات ، خرز ، أساور ، حلقات الأذن وحلى أخرى ، كتاب مقدس ملفوف بالجلد وكتب التراتيل والصلاة المزركشة بشرائط من الحرير وكانت أيضاً تلك القطع الصينية وكأنها آثار جروح فى الوجه وثمة أشياء أخرى عجيبة ومزخرفة كنا نشاهدها كثيراً فى الإحتفالات أو مع الزائرين القادمين من أماكن بعيدة وغريبة .

فى الليل كانوا يفرشون حصائر النوم فى حجرة أمى لأولئك الأطفال القادمين مع نويهم .. كان بعض أولئك الأطفال مصاباً بأورام فى الرأس وكانت بطونهم تتلوى من الوجبات الفقيرة ومتآكلة أقدامهم أما عن شعورهم فكانت مليئة بالقمل غير أن البعض الآخر كانوا يرتنون ثيابهم بأناقة وكانت صناديقهم مليئة بالملابس الجديدة وجيوبهم عامرة بالنقود .

كنت أتعجب لأولئك الذين يتنازلون بسهولة عن أطفالهم لمنزل الناظر وزوجته ولم أكن قادراً على الإستمتاع معهم والاحساس بالآلفة تجاههم كما كنت أشعر بمودة فى حجرة نوم أبى .

كان (دييو) ما يزال صغيراً ولكونه ولداً فقد كنت أعرف أنه سيلحق بى فى حجرتنا التى كانت رائحة العفونة تتسرب إليها من أوراق النخيل المتراكمة وتلك الكراسيات والملفات والحقائب الجلدية والخراطيم المعدنية والأحذية الجلدية .. كان إسحق يقلل من حجم الأوراق المتراكمة بإحراقها مرتين فى العام .

كانت ذرات التراب تتسلل إلى الحجرة من النافذة وكذا أشعة الشمس وكنت شغوفاً بالكتب المرتبة بعناية فوق الأرفف مما أثار دهشة إسحق فقد كانت شهيتى للكتب عظيمة حتى أن المسيحية المتوحشة كانت تجعل الزائرين يشاهدوننى وذات يوم أحضرت (تينى) لترانى وأنا أطلع الكتب ووبختها لأنها لم تكن تحب القراءة وذلك ما ضايقنى وجعل القراءة عملاً غير محبب لأن (تينى) كانت أقرب زملاء اللعب وكانت الرابطة بيننا قوية .

كانت أمى دائماً تتهمنى بأننى أملك روحاً شريرة وكنت أبدو مندهشاً لأن أحداً لا يشاركنى إحساسى بالظلم وفى محاولة للهرب من أفكارى المزعجة رحلت أتطلع إلى الخريطة فوق الحائط فى حجرة أبى ثم رحلت أقتل إسحق فى ألعابه الرياضية .

فتحت (لاوانل) الباب دون إستئذان وقالت : ماذا تفعل ؟

* من المفروض أن تطرقى الباب قبل الدخول إلى حجرة بابا .

* نعم .. ذلك إذا كنت أنت بابا .

قلت معترضاً : إنها ما تزال حجرتنا .

قالت : ولن تكون كذلك لمدة طويلة .. أنت الآن أصبحت كبيراً .. هل تعرف؟

* وما الفرق في ذلك ؟

هزت كتفها وهي تقول : سوف تكتشف ذلك في حينه والآن تعال لأن ماما تسأل عما تفعله حتى الآن في الحجرة .. لماذا لم تأخذ حمامك ؟

* أى شئ سوف أكتشفه ؟

* أوه .. يا إلهي .. دائماً تسأل سؤالاً وراء سؤال : ألا تتوقف أبداً عن الأسئلة .. إن ذلك عيب كبير فيك فأنت تحب الجدل كثيراً فهل تتصور نفسك بابا آخر ؟

* ما هو الشئ الذى سوف أكتشفه ؟

قالت وهي تتمايل : أعنى بأنه ثمة تغيرات ستحدث في هذا المنزل .

* أية تغييرات ؟

قاومت (لاوائل) ضحكاتنا قائلة : سوف تعرف حالاً .

* لم أعد أهتم .. إحتفظى بأسرارك لنفسك .

شدتني إلى ركن الصلاة وسألتني : ألم يخبرك بابا أنه مسافر ؟

* إلى أين ؟

* ها أنت تسأل مرة أخرى .. إنني أنا التي تسألك .. أنت مجادل

عظيم .

كذبت قائلاً : أعرف أنه مسافر لأنه في الليلة الماضية حكى لي قصة إضافية كعادته حين يسافر بعض الوقت .

* كان يجب أن يخبرك عن مكان سفره .

كنا قد عبرنا الصلاة ووصلنا إلى الفناء الخلفي وكان مستحيلاً أن تستمر

المناقشة .

دعكت جسدي في الحمام وشعرت بالمرض والخوف فقد تسببت كلمات

(لاوانل) في قلقي مثلما كانت تفعل أمي حين تتكلم ولا تنتهي مما تقول ..

كنت قد ورثت عن إسحق عدم الرضا .

كنت أنام على حصيرتي في حجرة أبي وكانت (تيني) وأولاد العم ينامون

فوق الحصير العادي الذي أكرهه كثيراً لأن بعضاً منهم وهم أكبر مني كانوا

يبولون عليه .

سافر أبي ودخلت حجرة نوم أمي .. كنت أنتظر عودته بقلق وحين عودته

سارعت باستعادة مكاني لكن أمي منعتني قائلة : (وول) .. لماذا لا تنام مع

الأخرين هذه الليلة ؟ .. لا يجب أن تتخلى عنهم بسبب عودة أبيك كما أن
أخيك الصغير يأتي أحياناً لينام معك .

لم أصدق إهتمام أمى بأحاسيس (ديبو) ورضيت بتأجيل عودتى إلى
مكاني فى ليلة أخرى وفى الليلة التالية عدت كما كنت .. كانوا ينامون بطريقة
غريبة وسرعان ما يبدؤون فى الشخير وكانت الصفارة التى تطلقها أمى
تقودهم إلى السرير وأحياناً كنت أستيقظ فى منتصف الليل على أثر أصوات
فى الحجرة كانت شبيهة بتلك الأصوات التى كنا نسمعها عند ذهابنا للمصنع
لرؤية الليمون الهندى والبرتقال والجوافة التى يعبثونها فى طب بعد سلسلة
من عمليات التنظيف والتقطيع بالمحركات والسيور والكباسات وغلايات
البخار.

فى الصباح كانت المناقشة غالباً تدور حول معرفة الشخص الذى تبول
فوق الحصيرة وكانت أمى متخصصة فى حل ذلك اللغز ... كانت رائحة البول
تنتشر فى كل صباح .

- فى كثير من الأحيان كنا نمارس اللعب فى الشوارع العامة وكنا نتسلق
الأعمدة وسور الكنيسة حيث نرى "أكية" ولم تكن مواكب الجنازات تجعلنا
نلتزم الهدوء والأدب فقد كانت شبيهة بحفلات الزفاف والرقص وكان النعش
أحياناً يقوده الحصان والتابوت متوجاً بالزهور وأوراق النخيل ... كانت
أجراس كنيسة القديس بطرس تدق قليلاً قبل وصول حشد المشيعين الذين
تبدو على وجوههم علامات الحزن .

كانوا ينقلون النعش من العربية إلى داخل الكنيسة ويضعونه فى مواجهة
المذبح وهم يرتلون وينشدون أناشيد هادئة تتناسب مع الموقف بينما النسوة
تسترسلن فى النواح وتظهر الأبواق من حيث لا ندرى كذلك المزامير والطبول
والدفوف .

Ileo , ile o

Ileo , ile o

Baba (iya) re'le re

Ile lo lo larara

Baba re'le re

Ile lo lo , ko s'ina *

- كانت السرقة هى إحدى المواقف التى يشارك فيها الصبية والأولاد فى
جلد السارق وكانت سرقة اللحم من إناء الشورية تبدو واضحة على اللص
حيث يكون الفم ملطخاً بزيت الإناء ..

* المنزل .. المنزل

ذهب الأكبر سناً للمنزل

مباشرة

ذهب الأكبر للمنزل

المنزل المقيد به .. إنه لن يضل طريقه

ذات مساء كانت أمى تجهز العشاء وكنا نطوف حولها ونمسك بها ثم تطرق الحديث إلى الحصائر المبللة من البول وراحت تهدد بالعقاب الشديد لمن يبلى الحصائر أو يسرق اللحم .

نظرت نحوى وقالت : (وول) يخطط للسرقه من الإناء .

* لا ..

* وربما فعل ذلك دون أن نراه .

قال جوزيف : إذا رأيته متلبساً فإنه سيدافع عن نفسه

قالت ماما : لا يستطيع الدفاع عن نفسه أمامى .. إن والده هو الذى يتمتع بقدر كبير من الصبر عليه .

قال ابن العم مقاطعاً : على أية حال فإن (وول) مغرم بسرقة الحلوى والسكر ولبن البودرة وأشياء من هذا النوع .

نظرت إلى ذلك الولد متحدياً إياه وتعجبت لمعرفته تلك لكننى فرحت لأنه لا يعرف أننى دائماً أسرق من علبة اللاكتوجين *

بعد أن تم فطام (ديبو) وبدأ يأكل مثلنا كانوا يضعون العلبه الكبيره من اللاكتوجين فى أحد الأركان .. كنت أحب تلك العلبه وما تحويه من بودرة

* علبة لبن أو شئ مصنوع من اللبن

ذات طعم لذيذ وشهى كان يبدولى أشهى طعم فى العالم .. لم يكن ذلك سرقة
فإن أحداً لم يتذكر العلبة التى أخفيتها وسط الأشياء الثمينة حتى أشبع
نهمى منها من وقت لآخر .

بعد شهر تم إكتشاف العلبة لكن أحداً لم يعرف ما تبقى منها .. راحت
أمى تستدعى كل واحد منا وتساأله ثم تهدده وصممت على النيل من اللص
المتهور فور معرفته والإمساك به .

مضى إسبوع دون أن أترف وبينما كانت أمى تعد الخضروات فى الغناء
راحت تفتح باب مخزن المؤونة وحين شاهدتتى أو مات برأسها وقالت : إنه
أنت .. كنت أعتقد ذلك ودائماً كانت شكوكى تحوم حواك .

لم تضربنى كالعادة لكنها ظلت هادئة مما أفرغنى وشعرت بالقلق لأننى
توجهت بنفسى نحو الفخ

قالت : سننتظر عودة أبيك كى ينال منك ثم أتولى أنا دورى فى العقاب

بدأت أخطط للهرب .. إن أحداً لم يتذكر العلبة منذ وقت طويل وكنت
أحتفظ بها فى حمايتى لمدة شهرين تقريباً وأنا أنظر إليها فى كل مرة وكأنها
جائزتى الخاصة .

قلت لنفسى : سوف أهرب بعيداً بعد أن أقوم بتفريغها على الأرض كنوع
من الإحتجاج النهائى .

تحركت خلسة من مخزن المؤونة إلى حجرة النوم ثم إلى الحجرة الامامية

حيث توجد غالبية كتبى .. وضعت الكتب فى حقيبة صغيرة وانتظرت لحظة الهرب المناسبة .

عاد إسحق من المدرسة فسارعت المسيحية المتوحشة بالإختفاء معه فى الحجرة كى تخبره بالاكتشاف الكبير فكانت تلك هى اللحظة المناسبة للهروب .. سرت فوق أطراف أصابعى عبر الصالة إلى الحجرة الأمامية لكننى سمعت أصواتاً من حجرة النوم جعلتنى أتردد .. توقفت لأسمع .. كان يبدو أن أمى غير مسرورة لأن إسحق لم يحاول معالجة الموقف .

سمعته يتذمر : كان يجب أن تجلديه .. لماذا تسببين لى القلق ؟

وسمعتها ترد : لكنه إنتهى من نصف اللعبة تقريباً فأنا أتذكر جيداً بأنها كانت مليئة عن آخرها عندما إستخدمتها آخر مرة من أجل (ديبو) .

قال إسحق : أرجو عدم الإزعاج ولك أن تعاقبيه على اللعبة بكاملها لكننى ما زلت لا أفهم لماذا لم تضربيه فى وقتها ؟

لم تكن المسيحية المتوحشة تعرف وجهتها وهى تخرج من الحجرة وكان الوقت كافياً لإلقاء الحقيبة من الباب المنخفض إلى الرصيف .. سحبتنى إلى الفناء الخارجى ولم أكن أفكر إلا فى تلك الحقيبة الملقاه على الرصيف والتي تحتوى على كتبى المفضلة وملابسى .. صاحت تطالب بالعصا فوجدت نفسى أقفز فى الفناء تجنباً للضربات القاسية واللكمات باليد والقدم .. ظللت خائفاً حتى اللحظة الأخيرة وتمنيت لو حدث الضرب خارج فناءنا ثم خطر بذهنى أن أسارع بالحركة ملتقطاً ممتلكاتى وأجرى فى شوارع الإرسالية فى كل

الإتجاهات بعيداً عن المنزل وسكان المنزل الذين يضمرون لى عداءً خاصاً
وكانو سبباً فى طردى من حجرة إسحق .

كانت رأسى تزدهم بأفكار كثيرة وغريبة وكنت أشك كثيراً فى بقائى بذلك
المنزل مدة طويلة .. قررت أن أمسك حقيبتى وأذهب بعيداً عن الإرسالية
باحثاً عن حظى فى مكان آخر .

عندما تسللت إلى الخارج بعد قليل لم أجد الحقيبة .. كان جوزيف قد
وجدها واحتفظ بمحتوياتها حيث يحتفظ بأشياءه ولم أكن أعرف ما أفعله معه
وفى نفس تلك الليلة بعد أن ناموا جميعاً وكانت أمى تهز السقف بشخيرها
مشيت فوق أطراف أصابعى نحو مخزن المؤونة وملأت فمى بلبن البودرة ثم
عدت مسرعاً إلى الحصيرة .. كانت البودرة تنوب وتتحلل ببطء فى حلقى .

فى الصباح لم أكن أحس بأى ألم من ضرب الليلة الفائتة .

(٧)

- كل شئ فى المنزل كان مستقراً وكان من العسير أن يتنبأ أحد بالتغيير .. الضيوف ، الأقرباء ، الزائرون الذين يعبرون بالصدفة ، العلاقات البسيطة ، أولاد العم وبعض الأحداث القليلة المتكررة .. كنا نحس كل ذلك ونتعايش معه وفجأة تغيير كل شئ .. بدت الملامح التى نعرفها غريبة عن ذى قبل وتغير كل من كنت أنا و (تبنى) نتعامل معهم ونعايشهم كما أن (تبنى) نفسها تغيرت حتى رحت بدورى أتسأل عما إذا كنت أنا أيضاً قد تغيرت دون أن أعرف .

قلت لتبنى : هل ستخبريننى إذا بدأت أتغير ؟ .. سوف تقولين لى بأننى تغيرت .. أليس كذلك ؟

قالت (تبنى) : عن أى شئ نتحدث .

• ألا تلاحظى ؟ جوزيف ، لاوانل ، نوبى .. كل شخص تغيير .. بابا وماما تغيروا وحتى السيد (أديلوا) تغير .

إنه مولد (ديبو) الوشيك .. لقد حدث التغيير قبل مولده بفترة طويلة .. لم يكن هناك من شئ يمكن ملاحظته على المسيحية المتوحشة والتي لم تكن سوى متوحشة سوى أن بطنها بدأت فى الإنتفاخ حتى خطر ببالى ذات مرة بأنها لابد قد تناولت كثيراً من الطعام وأن هذه طريقة فى نمو الكبار ثم تمنيت أن أنمو وأكبر حتى أصبح طويلاً مثل أبى .

كان صراخ أخى المولود وتلك الموهبة العظيمة على إزعاج الآخرين هو

نهاية ذلك التغيير فاخفت نظرات إسحق القلقة وتبدلت بإبتسامات لا نهائية مع بعض الضحكات وبدا المنزل فى حالة من الإسترخاء وانهاى الزائرون إلى المنزل فرحت أبحث عن ملاذى عند «چونا» هارباً من ذلك الضجيج المفاجئ .

أحياناً لا يكون التغيير متعلقاً بالأشخاص وهذا ما حدث ذات مرة حين قامت المسيحية المتوحشه فجأة بإعادة ترتيب الأثاث وفى أثناء ذلك كنا نصطاد الحشرات من المفارش والأغطية وكان أن إكتشفنا كثيراً من الثقوب فى أغطية الوسائد والمسائد وكنا نقوم بتسخين الإبرة فوق نار الشمعة للقضاء على الحشرات وتم نقل الكراسى المنخفضة والكراسى ذات المسائد من مكانها .

تغيرت أيضاً أماكن النوم وتم إبعاد كل شخص من حجرة نوم أمى وأصبحت الصالة هى مكان النوم الجديد بعد أن تحركت الكراسى قليلاً وانتقلت المائدة من المنتصف إلى أحد الأركان فكانت الحوائى والوسائد تنتشر أثناء النوم حتى أن إسحق كان يتعثر بالأجساد المتراكمة عند نهوضه فى الليل للشرب .

... كان ذلك تغييراً يبعث على السرور ولم يعد الواحد منا يستيقظ وأنفه ملتصق بتلك العيون السوداء .

كانت الأخبار التى نسمعها أيضاً تحمل بعض التغيير ولم نكن نتعمد سماعها فقد كان من العسير ألا نستمع إلى المحادثات القائمة فى أرجاء كثيرة من المنزل .. كان الزائرون يأتون دائماً ولا يتوقفون عن الحديث والجدال

وحين توقف بعضهم عن الحضور أصبح لزاماً علينا أن نتعلم لغة جديدة وعلاقات جديدة مع الأشياء والناس .

شعرت أكثر من مرة أن سكان المنزل يعدون أنفسهم للخروج من «أكية» تماماً .. إلى أين وكيف ولماذا ؟ .. إن ذلك لم يحدث أبداً .. كان مجرد إحساس فقط !!

عند مولد (فولاساد) أصبح التغيير مختلفاً .. كان مولد (فولاساد) بعد (ديبو) لكنها لم تكن مثله في شئ كانت طفلة هادئة ثم إنقلب حالها وصارت تصرخ ليل نهار وهي راقدة في سريرها الهزاز .. كانت تأكل بصعوبة كبيرة وكنا نلاحظ المجهود الكبير الذي تبذله واضحاً في عينيها .. عندما كنا نلمس يديها حين كان عمرها عشرة شهور كانت تقبض على أصابعنا بكل قوتها من خلال فتحات السرير الهزاز ثم فجأة ترف بعينيها وتحرك أنفها .. كانت عيناها تؤكدان شدة ما تعاني وهي تعاود الصراخ دون توقف .

مضت أمي وإسحق إلى حجرة نومه وظلنا بداخلها بضع ساعات إستطعنا خلالها أن نسمعها يتحدثان دون أن نقدر على إلتقاط أى كلمة .. كانا يتحدثان بصوت منخفض ثم إستدعيا الخادمة التي كانت حادة وعنيفة وهي تنكر التهمة الموجهة إليها .

قالت : إن الله شاهد على ما أقول .

ثم كررت كثيراً : لم يحدث شئ .. لا شئ ياسيدى .. لا شئ على الإطلاق.

وإنصرفت من حجرة النوم راسمة فوق وجهها علامات الظلم والإتهامات والشكوك الزائفة .

ذهبت (فولاساد) فى الصباح إلى المستشفى ولم تعد إلا فى وقت متأخر بعد الظهر وكان جسدها الصغير ملفوفاً بالشال والبلاستر من تحت إبطها وحتى أردافها ولم تكن المسيحية المتوحشة تحملها فوق ظهرها وإنما بين ذراعيها لكنها لم تكن تتوقف عن الصراخ من وقت لآخر وفى ليال عديدة كانت تبقى مستيقظة .

نهضت يوماً من فوق حصيرتى ورحت أحبو ناحية السرير الهزاز ثم نظرت إلى عينيها الهادئتين فبدالى أنها لا تعرفنى .

ذات يوم كانت الخادمة تجلس وحيدة مع نفسها وهى تبكى .. كانت دائماً وحيدة لا يتحدث معها أحد .. كان طبق الطعام بجانبها كما هو لم تأكله وحين سألتها عما حدث أفزعتنى ببيكائها الكثير المفاجئ حتى أننى لم أستطع أن أتبين ما تقول من خلال ذلك البكاء .

قالت : أقسم أنها لم تقع منى .. أقسم بالله أنها لم تقع منى فى أى وقت فقد كنت أعتنى بها ..

كانت تجلس على بعد خطوات من المخزن فى الفناء وهى تتطلع إلى أحد نوافذ حجرة نوم ماما وحين فتحت ماما النافذة لم أكن قد رأيت وجهها من قبل بمثل ذلك الكم الهائل من الحزن والغضب وهى تحرق فى الخادمة الباكية .. كانت قد سمعت الخادمة وظلت تحرق فيها ..

نظرت الخادمة إلى أعلى وشاهدت المسيحية المتوحشة فجفت دموعها في الحال وفي وقت متأخر من نفس المساء تم استدعاء الخادمة مرة ثانية واستغرق الحوار وقتاً طويلاً كنت غرقت في النوم قبل الأنتهاء منه .

في الصباح كانت الخادمة قد ذهبت هي وأمتعتها بينما ذهب إسحق وأمي وفولاساد إلى المستشفى الكاثولوكية في "إيتابادي" فساد المنزل الفرح لغيابهم رغم مرض (فولاساد) .. كنا فقط نعاني قليلاً من القلق .

أعلن جوزيف أن الخادمة حزمت أشياءها الليلة الفائتة ولم يكن يعرف الجهة التي ذهب إليها إسحق والمسيحية المنوحشة مع (فولاساد) لكنه حين نظرن السور إليهم عرف أن طريقهم يؤدي إلى المستشفى في "إيتابادي" .

لم يحدث أى تغيير في ملامح (فولاساد) عند عودتهم ولم يتغير شئ في تحركاتها فوق السرير الهزاز ... أثناء وجود إسحق في المدرسة لم تكن أمي تغادر حجرته .. كانت ترقد فوق السرير أو تمضى وقتها في الصلاة كانت تصلى كثيراً لكن النجار الذي يملك ورشة في ركن الطريق المؤدى إلى سور الكنيسة جاء إلى المنزل ذات صباح وهو يحمل صندوقاً خشبياً صغيراً ذا شكل مربع .. تناول أبى الصندوق ووضعها في حجرة نوم المسيحية المتوحشة التي سمعتها تقول : يجب أن يشاهدها الأولاد أولاً ..

أليس كذلك ؟

كانت (فولاساد) راقدة ومغطاة بقطعة طويلة من القماش الأبيض تمتد حتى قدميها وكانت عيناها مغلقتين .. كانت (تينى) حين نظرت إليها واقفة بهدوء دون إى إحساس بينما وجه المسيحية المتوحشة كان مزيناً بإبتسامة حزينة حلوة وهى تقول أشياء لم أستطع أن أفهمها لكننى فهمتها وهى تقول : لا يجب أن تحزنوا على أى شئ لأن (فولاساد) لم تعد تعانى من الآلام ، هل ترون ، لم تعد تعانى أى شئ .

نظرت مرة أخرى إلى (تينى) وتوقعت أن تفعل شيئاً أو تقول أى شئ لأنها أكبر منى لكنها ظلت تحدق فى الجسد بعينيها الهادئتين متفحصه أختها الساكنة فى صمت .

فجأة كسرت الصمت حين تملكنتى قوة غريبة وجريت نحو السرير وأنا أبكى .. أمسكنى أبى ورحت أقاوم محاولاته فى تهدئتى وكانت دموعى غزيرة وأنا منجذب نحو السرير وثمة تساؤلات كانت تعترضنى .

رأيت من خلال دموعى تلك الدهشة الغريبة فوق وجه أمى وسمعتها تقول : إنه لا يفهم .. لا يفهم !!

- توقعت تغييراً كبيراً برحيل (فولاساد) لكن شيئاً لم يحدث .. إن شيئاً لم يتغير وكان ذلك فوق طاقتى فبدأت أدبر المكائد بين أبى وأمى من أجل حدوث تغيير ما ولكن دون جدوى كما لو أن (فولاساد) لم تمت أو كما لو أن موتها لم يكن يعنى شيئاً على الإطلاق .

- كانت الأبينة فى «أكية» من الطين الهش فكانت تنهار بسرعة عند سقوط الأمطار فى يوليو وأغسطس وكذا كانت الرياح قوية تطوح بألواح الحديد المتموجة إلى أسطح أخرى وعند إنهار البيت فوق ساكنيه كان الذى يظل حياً يقف مبللاً ومرتعشاً وسط بركة من المياه ويحكى قصة الكارثة أما إسحق فإنه يفتش فى حقيبته عن بعض الملابس القديمة بينما تذهب المسيحية المتوحشة لإعداد الشاى المغلى والعسل والسكر واللبن مع قطعة كبيرة من الخبز الأبيض بالزبدة وذات يوم من أيام المطر الشديد تسللت إلى الخارج ففتحت أمى الشباك قائلة : إلى أين أنت ذاهب ؟

* ذاهب إلى المدرسة .

* لماذا ؟ ماذا تنوى بالضبط ؟

* سوف أجمع بعض الجوافة .. لابد أن الأرض مليئة بالجوافة بعد سقوط الأمطار .

* دع (بونمى) تذهب معك فقد يصيبك البرد .

* لا .. إنها شجرتى أنا .. شجرة الجوافة ملكى أنا .

صاحت المسيحية المتوحشة قائلة : هل جننت ؟ قلت لك ألا تذهب .. تعال هنا .

رجعت ووقفت على قدمى المرتعشتين ثم وضعت يدى خلف ظهرى .

* هل تسمع ما أقول ؟

* أسمع ماما .. أنا ذاهب للقراءة في كتابي

* وما الذى يجب أن تقوله عندما تتحدث ؟

* يجب أن أقول نعم .. نعم ماما .

حدقت فى بعنف وقالت : أغرب عن وجهى .. إذهب بعيداً .

* نعم .. ماما .

جاءت (بونى) من البوابة الخلفية فأمسكت بها قائلاً : إذا إمتدت يدك إلى شجرة الجوافة فإن العفاريت ستهاجمك فى الليل .. إنها شجرتى أنا .

* إذهب بعيداً عنى .. ها أنت لا تعرف شيئاً عن الأرواح .

* لو إقتربت من الشجرة وقمت بلمسها فسوف تعرفين من منا على

صواب .. ها أنذا أحذرك .

* أنت تشعر بالغيرة فقط لأن ماما لم تسمح لك بالذهاب كى تحصل

على الجوافة .

* إننى أحذرك للمرة الأخيرة .. لا تقتربى من الجوافة حتى لو كانت

ملقاة على الأرض .

أخبرت أمى بتهديداتي وفى المساء كانت تحديق فى من وقت لآخر .. عندما

إنتهى إسحق من طعامه أعلنت المسيحية المتوحشة بصوت عال وهي تنظر
نحوى : سألق بك كى نتناقش .

صاح إسحق : أوه .. حسناً .

رفعت (بونمى) إصبعها فى إتجاه أنفى : والآن سوف نرى من الذى
سيتلقى الضربات هذه الليلة .

* لماذا ؟ ما هى الجريمة التى ارتكبتها ؟

* عنيد .. عندما أخبرتها قالت أنك عنيد جداً وأنها ستقول لبابا .

ذهبت إلى الحجرة الأمامية للقراءة متوقعا إستدعائى فى أى وقت ولم أكن
قلقاً بشأن ذلك .

* إلى أى شىء تنظر ؟

* أنفك .

* ها أنت تصوير وقحاً مرة أخرى .. سوف أخبر ماما .

* أستطيع أن أكون وقحاً مع الذين يكبروننى فى السن أما أنت فمن
تكونين ؟

* الوقاحة هى الوقاحة ويجب أن تنتبه لوقاحتك .. ذلك ما قالته ماما .

قلت لها : هل أسأت إليك ؟

حدقت (بونمى) فى وجهى ونظرة إرتباك وحيرة تتلألاً فى عينيها : (وول)
..ماذا جرى لك ؟ .. لماذا تريد أن تتصارع مع الجميع ؟

* إتركونى وحيداً .

- لم أستطع أبداً أن أكون وحيداً .. كانوا دائماً يصرون التعليمات
بتعقبى فلم أسعد إلا قليلاً بالوحدة .. الوحدة .. إن (بوكولا) هى التى تناسب
مزاجى فكنت أهرب إلى بائع الكتب كلما سنحت الفرصة .. إن (بوكولا) تعرف
كيف تكون هادئة حتى وهى تتكلم .. كانت تنقلنى إلى عالم الهدوء الذى أتوق
إليه وكنت أتعمد ملاحظتها بحثاً عن إجابة للأسئلة التى تور فى ذهنى.

كنت أشعر بالأمن والسلام مع (بوكولا) .. فقط مع (بوكولا) .

- كانت المسيحية المتوحشة تتناقش دائماً مع إسحق بشأنى بعداء
وخصومة ولم أكن أتردد فى التصنت على ما يقولان وأحياناً كانت (تينى)
تأتى لإستدعائى وفى أحيان أخرى كانت (نوبى) أو (جوزيف) هما الذان
يبلغاننى وكانا يفرحان كثيراً لخوفى من ذلك الأستدعاء .. كنت أسير خلفهم
لاصقاً أذنى فوق الستارة لأجل مزيد من التصنت .

قالت أمى لإسحق : لا جديد .. إنه دائماً يميل إلى التأمل .. إنه دائم
التفكير .

* وإذن فلاشئ يستدعى القلق .

* إنها ليست ظاهرة صحية بالنسبة لطفل مثله .. كان طبيعياً عندما

كانت (تيني) هي صديقتها الوحيدة في اللعب .. لم يكن يمثل هذا السوء أما الآن وبعد مضي بضع سنوات فإنه يميل إلى التفكير والشروود ثم ذلك التوقف الطويل الذي يقضيه معك يساعده في قطع صلته ببقية العائلة .

* إذن فأنت تلومني الآن ؟!

* أنا لا ألومك يا عزيزي وإنما أحاول ألا نساعده أكثر لأن ذلك يجعله عنيداً .

* لم أشعر يوماً ما أنه عنيد .

* لأنك دائماً خارج المنزل كما أن بقية الأولاد لا يخبرونك بما يفعل .

* سوف ألاحظه عن قرب .

* يجب أن نساعده على الإحتكاك بالآخرين .. يجب ألا ينطوى على نفسه .

* نعم .. هو كذلك .

- جاءت السيدة (أدوفوا) لزيارتنا وشعرت - فور رؤيتها - بمعنوياتي ترتفع قليلاً.. كانت سيدة بسيطة ومتصالحة مع الجميع ما عدا زوجها ذي الأحاسيس الغليظة .. كانت (أدوفوا) أجمل امرأة وقعت عليها عيناي في العالم ولم أكن أحقد على زوجها الغليظ الذي كان بمثابة أبي الروحي الذي لن يعترض على زواجي من تلك المعبودة حين أكبر وأصبح رجلاً من الرجال .

كنت دائماً أتابعها بنظراتى وهى تتجول فى الحديقة مع زوجها ولم تكن تدعونا بأسمائنا وإنما بألقاب مختلفة فكانت تدعو (تينى) "بالمرأة الرقيقة" «obinrin Jeje» وكان ذلك إختياراً صائباً يوحى بمهارة وذكاء السيدة (أدوفوا) وعند رؤيتها لى ذات يوم وأنا أحاول جاهداً أن أساعد (جوزيف) فى تكسير الأخشاب التى تشعل فيها النار للتدفئة باستخدام الفأس أطلقت على لقب "قاطع الأشجار" «Lagilagi» وسرعان ما عرفنى الجميع بذلك اللقب أما (ديبو) فقد لقبته "چامانى" «Jamani» لتشابهه مع الجنس الألمانى فى حب الشغب والحرب .

كانت معبودتى فى أوقات الفراغ تتجول مع زوجها بين الزهور دون أن أتوقف عن متابعتها حين يكون (جوزيف) إلى جوارهما يقوم بإعداد كتل الخشب وتنسيقها وفى مكان آخر ليس ببعيد تكون المسيحية المتوحشة وهى تداعب الزهور من الساق وتشم رائحتها .. جاء (چامانى) فى ذلك الوقت من حيث لا أدرى كى يمارس عمليات الشغب وكان يمشى متأنقاً وهو يقفز إلى الأمام والخلف فى حركات جنونية لكننى لم أشأ إلا أن أتسامح معه .

إتجهت السيدة (أدوفوا) ناحيتى وقالت : (LagiLagi) أعرف أنك تعتنى دائماً بالزهور مثل أبىك .

شعرت بشئٍ خاص وهى تكلمنى ورحت أتابع صوتها مرة أخرى فى رأسى حين تدخل (جوزيف) وقال بصوته الرنان : Lagilagi !! لا تدعيه بهذا الإسم مرة ثانية مدام .. إنه لا يقدر على فعل شئٍ فهو كسول جداً ولا

يستطيع حتى أن يحرك الذبابة من فوق أنفه إذا تسببت فى مضايقته .

تعجبت لقدرة (جوزيف) على إلتقاط ومعرفة لغة اليوروبا الخاصة فلم يكن يتحدث بها إلا بطريقة غريبة رغم قضائه سنوات عديدة معنا .. شعرت بالخل مما قال ففتحت فمى وحدثت فيه قائلاً : هل ذلك حقيقى ؟

قفز (ديبو) إلى جوارنا فأشار إليه (جوزيف) قائلاً للسيدة(أنوفوا) : إنظرى إلى أخيه الذى يصغره بثلاث سنوات تقريبا .. إنه أكثر صلابة من ذلك الذى تسمينه LagiLagi وأراهن أن (ديبو) يستطيع أن يرفع هذه الفأس ويشق بها الخشب .

تحركت خطوة للأمام دون تردد ثم رفعت الفأس وضربت كتلة الخشب وكانت ماما قد إلتحقت بنا لكن (جوزيف) لم يفعل شيئاً سوى إنه تنحى جانباً كالذليل وراح يتظاهر بالقراءة .

شعرت بحرج شديد .. ما الذى فعلته ؟ ولماذا يحاولون التقليل من شأنى أمام معبودتى التى ستصبح زوجتى ؟

تجولت ببصرى من واحد إلى الآخر .. كانوا بلداء ومنى كانوا يضحكون .

ظهرت نوبى فجأة وقالت : إن مجرد رؤيته لأى شجار يجعله يهرب .. إنه يبكى لمجرد أن يلمسه أحد .

إستطردت وهى تضحك بإستهزاء : هاأمم .. إن الإغماء يصيبه فور الاقتراب منه .. إذن دعه مع كتبه .

سألت نفسي عن الشخص الذى يتحدثون عنه وأحسست أن كل ما يقولون مجرد ألباز .. ربما كانوا يتحدثون عن شخص ما أو عمل ما لكننى أدركت أنهم يقصدوننى بالحديث ولم أستطع التعرف على نفسى فيما يقولون .

كان (ديبو) ما يزال يقفز حين أوقفه (جوزيف) وأمسك به محولاً وجهه ناحيتى : أراهن أن (ديبو) يستطيع أن يضربه ضرباً شديداً .

. قالت المسيحية المتوحشة : طبعاً .. إنه يستطيع أن يضربه حتى يتوسل إليه طالباً الرحمة .

لم يكن يهمنى شئ سوى معرفة ما يدور برأس السيدة (أودفوا) .. هل كانت تصدق كل ذلك ؟ .. كانت تقف مع زوجها بجانب شجرة الجوافة الصغيرة وابتسامة غريبة تملو وجهها .

تساءلت (نوبى) : لماذا لا نرى بأنفسنا ؟ .. إن (ديبو) حقاً يستطيع أن يضربه .

لم يكن (ديبو) من ذلك النوع الذى يستطيع أن يقاوم دعوته للشجار وقد نجحوا فى إستفزازه فبدأ يفرك قبضة يده الصغيرة متأهباً لوضع القتال وهو يقفز من جانب إلى آخر مقلداً رقصة الحرب حتى لم يسبق لى أبداً من قبل أن رأيت مثل تلك الإثارة فوق وجهه .. هتفوا جميعاً من كل الإتجاهات بينما كنت واقفاً بدون إهتمام وأنا أستمتع بحركاته الجنونية .. كان شبيهاً بالقزم ، مرحاً ، خفيف الروح وكان الكبار يتطلعون فى شغف لما سوف يحدث .

مكتفى .. مكتفى

سمعت فجأة صوت (جوزيف) : (ديبو) .. تقدم .. دعه يعرف نفسه .

تحرك (ديبو) الصغير ناحيتى رافعاً قبضته فى الهواء ولم أستطع أن أفهم السبب فى اهتمامهم

سمعت أصوات إحتجاج وتحذير ولكن الوقت كان قد مضى فقد إجتاحتنى عاصفة من الغضب وانتفخت عروقى وكانت اللكمات فوق وجهه وجسد (ديبو) متلاحقة دون وعى منى ولم أستطع أن أتذكر ما فعلت

إدركت أنه صوت (جوزيف) الذى قال : (وول) .. *o to , o to .. هل تريد أن تقتله ؟

كان صوت أمى قلقلنا حين قالت : (وول) .. نحن فقط نقوم بإستفزاز مشاعرك .. لا تنس أنه أخوك الصغير .. أه .. لا يجب أن تكون عنيفاً معه هكذا مهما كان الأمر .

شعرت بالسماة تسقط فوق رأسى فارتعشت بشدة ولم أشعر بشئ إلا بيد المسيحية المتوحشة فوق جبهتى .. كانت تبدو قلقة .

سمعت نواح (ديبو) الذى حملوه إلى غرفة الطعام وقدموا له الحلوى وعصير الفاكهة كنوع من العزاء وكانت المسيحية المتوحشة تنظر بعينيها نظرات غريبة وقلقة ناحية (ديبو) الذى يبكى .. كانت تتألم وتبدو خائفة حتى أننى فكرت هامساً لنفسى : إنها أم مختلفة عما هى عليه دائماً .

* كفى .. كفى

أضافت قائلة : ولكن لماذا ؟ لماذا ؟ .. كان الأمر كله مزاحاً .. هل تريد أن تقتله ؟ .. إنه مازال طفلاً .. أنت تعرف أنه طفل ولا يصح التعامل معه بهذه القسوة .

توقف (ديبو) عن الصراخ وخرج (جوزيف) من الحجرة فأحسست أنه يبتعد عني أوهكذا تخيئت لكن كلماته كانت تبين ما يشعر به حتى أنه لم يستطع أن يخاطبني مباشرة وهو يقول : الأخ الأكبر سعيد بنفسه .. الأخ الأكبر مسرور بما فعل فلماذا نقلق ونزعج .. كان يجب أن نتركه ليقتله .

ثم راح يصفر بفمه صغيراً طويلاً .

منعته المسيحية المتوحشة عن الكلام غير أنني لم أجد إختلافاً كبيراً في موقف كلاهما .. كانت تتلبسني فكرة واحدة هي أن عالم الكبار يخلو تماماً من العدالة والمنطق إذ كنت متأكداً من أنني مظلوم لأنه كان أخى الذى مارست عليه عنفى حين رفسنى بقوة فوجدت نفسى أمام الأمر الواقع .

إستدعنتى المسيحية المتوحشة بعد صلوات المساء إلى حجرة النوم وقالت لى : إن الشيطان دائماً يتدخل بينك وبين من تحب وإنه لمن اليسير أن تقع تحت تأثير الشيطان .

كنت أنا و(تينى) نحب (ديبو) كثيراً وكنا نستمتع بحركاته وإيماءاته وضحكاته لكونه كان صغيراً لا يعاقبه أحد إذا ما ارتكب حماقة ما فقد كنا ننسب إليه أخطاءنا مثل الفائزة التى كسرناها أنا و(تينى) بينما كنا نتشاجر

- أصبح (ديبو) بعد فترة طويلة يطلب مقابلاً لخدماته التي تتجنب بها العقاب فكان يطلب قطعة من اللحم أو الحلوى أو البطاطا حتى أصبح ماهراً فى الحصول على ما يريد فأدركت أن الأمر سينتهى به إلى الخدمة فى دكان المسيحية المتوحشة وأنه سيكون إنتهازياً ولم أعد أعرف ماذا أفعل معه .
..... كانت مجرد فكرة تنذر بخطر كبير .

أخبرنى (جوزيف) وآخرون بمواصلة ضربه حتى يقع ويصرخ مدافعاً عن نفسه لكن الفكرة لم تعجبني أبداً . كنت بائساً بشدة وانتظرت بقلق تلك اللحظة التي يخبرون فيها إسحق بما حدث لكنه لم يكن موجوداً .

(٨)

- دخل العمال المنزل ذات صباح مبكر وكانوا يحملون الأسلاك والمسامير والمشابك وراحوا يثقبون الحائط .. كان غريباً ذلك الغزو من العمال بمعداتهم وبعد إنتهائهم من عملهم لم نعد فى حاجة إلى مصابيح وفوانيس الكيروسين أو حتى إلى الشمعدان .. أصبحنا نضغط على المفتاح فتضىء الحجرة وتتلاأأ بالنور وحين إستهوتنا اللعبة أصدر إسحق تعليماته بالأ يقرب أحد المفتاح إلا بأمر منه أو من المسيحية المتوحشة .. كانت التعليمات صارمة لكننى كنت مدركاً إنه بعد وقت قليل ستصبح تلك الكرة المتوهجة ظاهرة طبيعية رغم تظاهر إسحق بأنها نوع من أنواع السحر .

كنا ننظر إلى المصباح المضىء باندهاش ولما قرأ إسحق تلك الدهشة المرتسمة فوق وجوهنا هبّ واقفاً إلى جوار شئ ملتصق بالحائط ذى لون أبيض وأسود فانطفأ النور فجأة مما أثار مزيداً من دهشتنا لكننا فى النهاية شاهدناه وهو يضغط فوق ذلك الشئ الملتصق بالحائط .

قال إسحق : إن هذا الضوء السحري باهظ جداً .. إنه يكلف الكثير فيجب أن نستخدمه بحكمة .

راح العمال يثقبون الحائط مرة أخرى ورحنا نتساعل عن السحر الجديد .. لم تكن ثمة مصابيح هذه المرة ولا مفاتيح إضافية للإضاءة وإنما هو صندوق خشبى كبير الذى جاؤا به إلى المنزل كان يبدو وكأنه مصنوع من الصفائر

الحريرية الرفيعة لكنه لم يكن بأى حال شبيهاً بالجرامفون .

فى أحد الأرفف المنخفضة من الدولاب وضعوا الصندوق الخشبى الكبير مكان الجرامفون القديم ولم نعد فى حاجة إلى رفع اليد وتغيير الإبرة .. كان كافياً مع ذلك الصندوق أن ندير المفتاح يساراً أو يميناً لنستمع إلى الأصوات والأغاني لكن ذلك لم يكن بمقدورنا أن نفعله طوال اليوم فقد كان الإرسال يبدأ مبكراً فى الصباح .

بقوله : « فى حماية الله أيها الملك .. حفظك الله أيها الملك »

ثم يواصل برامجه لفترة قصيرة تتخللها بعض الأغاني والبرامج الغربية قبل أن يتوقف بعض الوقت ليبدأ مرة ثانية فى وقت متأخر من بعد الظهر إلى أن ينتهى ما بين العاشرة والحادية عشر مساءً

بقوله : « فى حماية الله أيها الملك .. حفظك الله أيها الملك »

أطلقنا على ذلك الصندوق العجيب إسم * As'oromage'esi وعند توصيله بالكهرباء كانت تصدر منه الخشخشة .

- كان التكهن بالأخبار عملاً صعباً فأصبحت نشرة الأخبار بالنسبة لإسحق وكثير من أصدقائه من الأشياء الهامة والمقدسة .. كانوا يندفعون إلى منزلنا وكأن شيئاً ما قد أصابهم فتبدو الصلاة الكئيبة بوجودهم وكأنها مكان للحج ولم نكن نحن الأطفال نجرؤ على الكلام أثناء سماعهم الأخبار .. كانوا

* الشخص الذى يتحدث دون إنتظار إجابة من أحد .

يستمعون بانتباه شديد ووجوه ذاهلة وكانوا يتنفسون بصعوبة وبعد الانتهاء من سماع الأخبار كان يعترهم القلق ويتملكهم الخوف فيتوجهون بالفطرة وفعل التعود إلى القس .. كان إسحق يتأمل لحظة ويفكر ثم يعلق على الأخبار فيشاركونه بأصوات مليئة بالإثارة والتوجس .

- تراكم التراب فوق الجرامفون ولم يعد أحد يستخدمه فاخترت معه أصوات "دينج" ، "باكار" ، "أمبروز وكامبل" وصوت الرجل الأسود "بول روبسن" وكذلك أغنيات عيد الميلاد وأغاني "ماريان أندرسون" والأصوات الأوربية وكورس "هاليلوجا" وصرنا نتابع الغناء والأخبار والبرامج من الصندوق الجديد حتى سمعنا ذات مرة كورس "هاليلوجا" من الصندوق فاتفقنا جميعاً على أنه أقوى وأجمل من صوته فى الجرامفون القديم الذى لم ننجح أبداً فى إسترداده .

كان أفراد العائلة يتصارعون على الصندوق فى كل صباح وكان ذلك شيئاً مثيراً أما ضحكاتهم فكان يهتز لها الصندوق حتى فكرنا أن نخرج به للشارع ليتصارع عليه الجميع أو نضعه فوق شباك المنزل وهو مفتوح بأعلى صوته .. أه لو أن كل العائلات التى نعرفها فى «أكية» فعلت نفس الشئى كانت فكرة مستحيلة لكننى أدركت أن ما نفعله فى الصباح من صراع لأجل الصندوق كان شبيهاً بالألعاب التى نمارسها أحياناًفى المدرسة فى يوم توزيع الجوائز ثم بدأت شيئاً فشيئاً أتعرف على كلامهم الغريب وأمزجتهم المختلفة .

- سيطرت أخبار الحرب على أحاديث إسحق وأصدقائه واحتلت مساحة كبيرة فى مناقشاتهم كما إحتكر هتلر أخبار الإذاعة وكانت له برامجه الخاصة وهو يقترب يوماً بعد يوم .

تم طلاء النوافذ باللون الأسود مع ترك دوائر صغيرة جداً دون طلاء حتى يتمكنوا من الرؤية ومشاهدة هتلر وهو قادم يسير بخطوات واثقة فى الطريق .

حلقت أول طائرة فوق «أبيوكوتا» وكان أزيها صاحباً أفزع المسيحيين الذين سارعوا إلى الكنائس للصلاة .. كانت الحرب والطائرات فى إعتقادهم نوعاً من السخط الإلهى لا ينفع فيه شئ سوى مزيد من الصلاة تجنباً لسخط الإله بينما أغلق آخرون أبوابهم ونوافذهم إنتظاراً لنهاية العالم .

كان الأطفال يقفزون فى الحقول والشوارع متطلعين إلى الطائرة المعجزة إلى أن تختفى تماماً وهم يهتفون ويلوحون لها .

أعلنت الأخبار ذات صباح أن سفينة بكامل طاقمها تحطمت فى ميناء لاجوس وكان الانفجار ضخماً إهتزت له الجزيرة كلها فتناثرت الشبائيك وتساقطت الأسقف .. كانت البحيرة مشتعلة باللهب وعلى حافتها إحتشد أهل لاجوس مذعورين ومتعجبين من تلك الحرائق الضخمة المتأججة فوق سطح المياه .. أوه .. ها هو هتلر قد جاء لقد إقترب هتلر ولم يعد بمقدور أحد معرفة ما يفعل لكن (بأداتان) كان يقضى اليوم كله منذ الصباح أمام دكان المسيحية المتوحشة حاملاً السيف القصير فى الجراب المتدلى من خصره مع الحجاب وكانت السكنين فوق كوع ذراعه الأيسر وسلك دائرى وحلقات نحاسية

بين أصابعه .

كانت الأحجية والتعاويذ داخل الجراب تؤكد له أن أى رصاصة قادمة فى إتجاهه لابد وأن تنعكس بعيدة عنه عائدة إلى الذى أطلقها عليه .. إنه بطل "أداتان" الخالد الذى إذا صفع الخصم بإحدى يديه فلا بد أن يقع على الأرض فاقداً الوعى وكان يدخر يده الأخرى للمواقف المفاجئة .

كان (بأداتان) مكلفاً بحراسة منطقة «أفين» وأصبح ثائراً بشدة لأنهم لم يأخذوه إلى الجيش كى يواجه هتلر ويعمل على إنهاء الحرب مرة واحدة وإلى الأبد .

* أه .. ماما (وول) .. هذا الشعب الإنجليزى الشاحب اللون .. هل ترين .. ها هو هتلر يهاجمنا فى لاجوس وأولئك الإنجليز لا يدافعون عنا .

صمت (بأداتان) برهة ثم راح يبصق بعصير الكولا على الأرض فى غيظ وهو يستطرد : ماما .. ساكون جثة بجوار حائط قصر «ديس» بينما سيقولون: (هناك يوجد رجل أسود) .

ظل يفتش بإهتمام فى جيوب ملابسه ثم ٦-٧ لأمى : أوه .. ماما(وول) .. نسيت أن أحضر كيس نقودى .. إنظرى .. رجل كبير مثلى ينسى نقوده فى المنزل

سحب (بأداتان) سيفه ورسم خطأً على الأرض أمام الدكان وقال : إذا حاولوا إجتياز هذا الخط فإن البنادق سوف تنسفهم .

تعقبته ذات مرة بينما كان ذاهباً لتناول إفطاره وكانت بائعة الطعام تعرف ما يريد فوضعت أمامه أربعة من أوراق الإيبا الكبيرة الملفوفة وبعضاً من الخضار وقطعة لحم واحدة كانت تبدو وسط الخضار كأنها غارقة في محيط .. ترك قطعة اللحم دون أن يلمسها حتى إلتهم كمية الأيبا الضخمة التي كانت اللقمة الواحدة منها أكبر كثيراً من أى شئ أستطيع تناوله فى وجبة واحدة.

تلعثم (بأداتان) وتنحنح لكن المرأة لم تهتم

* هاأم .. (إياو)

* هدوء .

* (أياو)

قالت بائعة الطعام بغضب : أتريد أن تخرب بيتى .. كل يوم تفعل نفس الشئ .. إذا فعل كل واحد مثلك فكيف أستطيع العيش.

* أوه .. (إياوو) .. أنا لا أقصد مضايقتك .

إعتدلت فى جلستها من فوق الكرسي وملأت المغرفة التي صبت محتوياتها فى طبقه وقالت : لكى لا تشكو . هكذا كل يوم .. نفس الشئ .

* باركك الله .. باركك الله .. إنه هتلر إبن (.....) .. بعد إنتهاء الحرب سوف ترين .. ستعرفيننى رجلاً كما يجب .

كانت المرأةمعتادة على سماع تلك الوعود فلم تقل شيئاً وانصرفت إلى

شئونها بينما راح (بأداتان) يلتهم بقية الإيبا ويقذف بقطعة اللحم إلى فمه مثل الكلب الذى يهجم على اللحم وسط كومة من القمامة وكانت عضلات رقبته وفكه مشدودة وبارزة وهو يمضغ اللحم ويضرب فوق المائدة المنخفضة قائلاً «سوع من التحدى» - دعيه يأتى .. فليخطو أى خطوة بالقرب من قصر «آلاك» حتى أحطم رأسه وأضره ضرباً شديداً .

نهض من مكانه وهو يسوى من ربطة الحبل حول البنطلون وقال : إذا جاء رجل من رجال هتلر بالقرب منك فلتخبريه أن (بأداتان) هو الذى يتحدث .

ثم رفع رأسه إلى أعلى فارداً قامته وصدرة إلى الأمام وراح يستأنف دوريته .

- توقفت سيارة مسلحة كبيرة فى الطريق ذات يوم أمام صف المحلات الذى يوجد به محلنا فنفرق الأطفال والنساء فى كل الإتجاهات وتملكهم الذعر .. تقهقر الرجال وراحوا ينظرون من خلال أبواب دكاكينهم وهم متأهبون للجرى أو التوسل من أجل حياتهم .. لم يكن أولئك الجنود هم الذين يقيمون فى معسكرات "لائينوا" لكنهم كانوا من "البوت" سيئوا السمعة وكان من اليسير التعرف عليهم من الكابات فوق رؤوسهم ... قالوا أنهم جاؤا من الكونجو وأنهم متوحشون يأخذون ما يحتاجونه من المحال التجارية دون أن يدفعوا شيئاً ويفتصبون النساء والأطفال وكانت دعوة الرجل بأنه «بوت» تعد إهانة كبيرة كما كان إنتظارهم دون الجرى عنهم يعد حماقة هائلة .

كنت فى الدكان مع المسيحية المتوحشة التى لم تهتم بأولئك الجنود ولا

بالسمعة السيئة التى يتصفون بها ولم تفعل مثلما حدث مع بقية المحال
المجاورة التى أغلقت أبوابها وفر أصحابها هاربين .

طلبوا شراء البسكوت والسجائر والطعام المجفف وعلب الحلوى
والمشروبات فتسلقت الأرفف لإحضار العلب وإعطائها لأمى لكننى فجأة
سمعت صوتاً كزئير الأسد .

كان (بأداتان) بين الفراغ الذى يتوسط رعوس الجنود والباب الفسيح
وكان عارياً حتى خصره والبنطلون مشدوداً ومربوطاً فى حزامه أما وجهه
فكانت تكسوه تعبيرات الموت .. أمسكت بيدي السيف و* Sere باليد الأخرى
وأزحتهم فى حركة دائرية إلى حيث كان يتمم .

حدق الجنود فى بعضهم البعض وكانت المسيحية المتوحشة تستمع وقد
تعرفت على سبب الإضطراب غير أنها لم تهتم بينما راح (بأداتان) يلعنهم
قائلاً : أولاد الكلب .. كذابون .. حيوانات .. بهائم .. بدون وطن .لم يفهم
الجنود أى كلمة وكانوا يتهامسون بلغتهم الغريبة وهم يرفعون حواجبهم
ويهزون أكتافهم ثم عادوا يواصلون شراء حاجياتهم ... كانوا ثلاثة منهم أو
أربعة يجلسون فوق الرصيف المواجه للدكان يراقبون وبقيتهم يحتشدون أمام
الدكان فلم تستطع المسيحية المتوحشة أن ترى (بأداتان) فأصابها القلق

وسألتنى عما يحدث .

قلت : إنه يرقص الآن .

* Sere : زجاجة صغيرة ذات قوة سحرية . (المترجم)

كان يرقص رقصة الحرب ويغنى بأعلى صوته :

Ogun Hitila b' AKE

Eni La o pa Bote *

ظل بعض الجنود يراقبونه بينما كان البعض الآخر يواصل الشراء فانتهزت أمى الفرصة وضاعفت السعر لكنهم لم يبالوا وقدموا لى علبة بسكوت رقيقة وحلوة .. كنا نتحدث بلغة الإشارات ونبتسم ونحن نهز أكتافنا أو نلوح بأيادينا ولم نجد أى متاعب فى التعامل معهم حتى بدأوا فى الرحيل وعندئذ توقف (بأداتان) عن الغناء ورسم خطأ على الأرض متحدياً إياهم أن يتخطوه .. قفز مندفعاً بوحشية نحو الخط رافعاً سيفه ثم توقف فجأة فوق أحد نقاط الخط بقدم واحدة وهو يدور بجسده حتى يعود إلى النقطة التى بدأ منها .. كرر تلك الحركة مرات ومرات فارتبك الجنود ولم يعرفوا ما يجب أن يفعلوه مع هذا الرجل .

قبل أن يطيلوا التفكير إندفعت المسيحية المتوحشة من مكانها وقالت باحتجاج : كفى يا .. كفى .. إنهم أصدقاؤنا وأنت تعوقهم الآن عن الذهاب لمحاربة هتلر .

أجاب (بأداتان) : إنهم "بوت" .. إنهم وهتلر نفس الشئ .. إنظري إليهم

* حرب هتلر تصل إلى أكية .

واليوم سوف نقتل هؤلاء البوت .

.. إنهم جبناء .

ثم رفع Sere فى وجوههم قائلاً : ضعوا هذه البضائع على الأرض
وسأعطيكم رسالة إلى هتلر .

زحف إثنان من الجنود خلفه وقيدا ذراعيه بعد أن جرداه من السيف
وأل Sere لكنه ظل يقاوم بشراسة ولم يكن من السهل الإمساك به فجلس
الجنود يلتقطون أنفاسهم ويمسحون العرق المتدفق من أثر المقاومة وهم
يلعنون لغتهم الغريبة ثم أحضروا بعض الحبال وقيدوه بها لكنه لم يستسلم ..
وقفوا على شكل دائرة يمسحون العرق دون أن يتوقفوا عن التطلع إليه وإلى
تلك الوجوه التى ظهرت واحداً تلو الآخر من الدكاكين والنوافذ والأركان
والمخابئ .. أصابتهم الدهشة مما يشاهدون ومن المقاومة الشرسة
ل(باأداتان) ولم يستطيعوا التحدث إليهم غير أن بعضاً منهم كان يومئ
برأسه فى حزم

كان (باأداتان) مقيداً يحاول أن يجلس بطريقة مناسبة حين رمق أحدهم
وهو يهز رأسه .

قال شخص ما : ياله من مسكين .. إن مجد "إيجبالاند" يرقد فى الأرض
غارقاً فى التراب .

إندفع بعض «الأوجبونى» قادمين من القصر بعد سماعهم بالحادث
وبعض الإشارات والإيماءات نسبوا مسئولية ما حدث إلى أنفسهم ثم قدموا

إلى (بأداتان) سيفه وأك Sere.. وقفزوا إلى عرباتهم فراح الجميع يتساعل : هل سيستدعونه فى البوليس ؟ هل من الصواب أن نفك (بأداتان) من قيده ؟ هل سيلقون به فى مستشفى الأمراض العقلية فى « أرو » ؟

أغلقت المسيحية المتوحشة دكانها وهى تتنادينى كى نفك الحبال عن جسد (بأداتان) وعندما شرعنا فى فكه علت بعض الأصوات صارخة من الفزع ولم يوافقوا على ما نفعل لكننا كنا نواصل عملنا دون أن نهتم بصيحاتهم فحاول أحد الرجال أن يمنع المسيحية المتوحشة التى إنتصبت واقفة وشدت جسدها إلى نهايته وقامت بتحذيره من أن يلمسها مرة أخرى .

وقفت بدورى إلى جانبها منتصباً وأنا أسخر من الرجل وكنت أعرف لو أننى سخرت منه فى ظروف أخرى لكنت صفعتهنى أمد بشدة فوق وجهى لكنها فى هذه المرة لم تفعل ثم تدخل رئيس «الاجبونى» وكلف الرجل بفك الحبل ليصبح (بأداتان) حراً .

نهض (بأداتان) ببطء فتقهقر الجميع عدة خطوات إلى الوراء .. تناول السيف ووضع فى الجراب ثم قذف باله Sere إلى الأرض فأحدثت إنفجاراً هائلاً أفزع المشاهدين وراح يبتعد عن المكان وهو يمشى بكبرياء لكن وجهه كان حزيناً .. كان متجهاً صوب « إيبورو » ثم إختفى شيئاً فشيئاً وتلاشى عن الأنظار .

..... لم أشاهد (بأداتان) بعد ذلك أبداً .

- كان لابد للأمد أن تفعل شيئاً حىال شروبر إسحق المتصاعد فإختارت أن

تبقى فى دكانها معظم الوقت هرباً من إسحق الشارد وكانت تلك فرصة مناسبة يحتمى فيها بأصدقائه .. كانت قبل أن تذهب إلى الدكان تتأكد من إعداد إفطار زوجها من «الأكارا» و«الأوجى» والخبز والبيض والشاى أو البطاطا المغلية والبيض أو شوربة السمك فوق المائدة لكنها نادراً ما كانت تقوم بإعداد طعام « ليكى» الشهى والمصنوع من قشرة الخبز والبقول وبذرة البطيخ لأن ملعقة واحدة منه كانت كافية لنشوب النزاع بين أفراد العائلة .

إنضم الشاب (مايسلف) إلى أفراد العائلة حيث ظهر فجأة من حيث لا ندرى وأصبح يشاركنا حياتنا ثم إختفى فجأة أيضاً دون تفسير من أحد .. كنت أراقبه . من بين الأرجل متطلعاً إلى طبقه الذى يكون عادة فارغاً .. تعودنا جميعاً على لهجته الفريدة وأصبح مصدر تسلية لنا وعندما كان يرانى أنظر من بين أقدام الولد الطويل إلى حركات فكه كان الخوف ينتابه خاصة لو كان الطبق محتوياً على طعام (ليكى) .

كانت (تينى) وأنا وأولاد العم (ديبو) نتسابق لنيل شرف إفزاعه بسؤالنا المعتاد : هل تناولت إفطارك ؟

كان قصيراً وذا بشرة مضيئة يجلس فوق الكرسي تحت ساعة الحائط فى الحجرة الأمامية وهو يقرأ فى مجلة أو كتاب فى إنتظار عودة إسحق من المدرسة لتناول إفطاره وعندما تكون أمى خارج المدينة كان يصل مبكراً عن العادة أثناء قيام أبى بتدريباته فى الحجرة وكنا نخفى ضحكاتنا عن الناظر لمعرفتنا بعاقبة الضحك على الضيف لكننا بعد ذلك بالطبع كنا نقلد الضيف على الملأ .

كان أبى عند خروجه من حجرة نومه أو إنتهائه من الحمام أو بعد تجواله فى الحديقة وأحيانا بعد عودته من المدرسة يتقدم نحو الضيف ويقدم له التحيات بلطف ورقة ثم يذهب لشئونه أما فى وقت الأجازات فكان الوقت كافياً كى يجلس وقتاً طويلاً فوق مكتبه فى الحجرة الأمامية لإنهاء بعض الأعمال قبل أن ينهض للافطار الذى يصبح بارداً وفى كثير من الأحيان كان يتبادل الحديث مع ضيفه بهدوء وهم يتحاورون فى أمور السياسة اليومية ويتناقلون الأخبار والإشاعات عن الحرب وبعض التحركات المحلية بينما نكون نحن فى إنتظارهم نحس ملل الإنتظار فيذهب أحدنا لإخبار إسحق أن إفطاره جاهز أو لسؤاله إذا كان يريد إعادة تسخين الـ «أوجى» أو الفول وعندئذ كان يتوجه إلى ضيفه بالسؤال : هل تناولت إفطارك ؟ فيرفع (مايسلف) وجهه من الجريدة التى يشغل نفسه بها وينظر إلى أعلى فى خوف متطلعاً إلى أى اتجاه ماعدا الإتجاه الصادر منه السؤال ثم يتجه إلى إسحق متسائلاً إذا كان السؤال موجهاً إليه راسماً على وجهه علامات الدهشة وهو يجيب : أوه .. أنت تعنى (مايسلف) ؟ كانت إجابته متقطعة وغير واضحة رغم كل المبالغة التى حاول بها نطق الحروف وكانت كلماته مثل مواء قطتنا مما جعلنا نضحك كثيراً ونحن ندارى وجوهنا فى مساند الكراسى التى نختفى وراءها .

وقف إسحق متأملاً إياه وسائر كلاهما بوقار إلى حجرة الطعام ثم جلسوا بتائق واحترام فوق المائدة فكان ذلك شيئاً سيئاً بالنسبة لشهيتتنا المفتوحة .

{أنت تعنى (مايسلف)} .. ظللنا نضحك لهذه العبارة كثيراً كلما تذكرناها

من حين لآخر وكانت المسيحية المتوحشة تقابله في جولاتها الشرائية خارج المدينة وظلت ملامحه عالقة بأذهاننا وكثيراً ما كنا نقلده فنحدث مثلما كان يتحدث أو نأكل ونقرأ الجديدة مثلما كان يفعل حتى أن أمي كانت تستدعي إسحق لرؤيتنا ولم تعد تهتم بما نفعل فإن لحظات من القلق والإنزعاج كانت تنتابها من ذلك الروتين اليومي ..

قالت ذات يوم أثناء وجبة العشاء : هل كان طعام « ليكي » جيداً هذا الصباح ؟

كان الضيف في ذلك الصباح قد إلتهم « ليكي » عن آخره

قال إسحق : أوه .. هل يوجد « ليكي » اليوم ؟ فلتجهزوا شيئاً لأنني سأعود للمدرسة حالاً .

تظاهرت ماما بالدهشة قائلة : يالهم من أغبياء .. إن طعام « ليكي » موجود طوال الوقت .

وقالت لجوزيف : أين الإفطار الذي أعددت له لوالدك ؟ إنني لا أراه فوق المائدة .. أين هو ؟

ظل الوالد يتمتم فقالت (نوبي) : لقد وضعناه فوق المائدة ياماما لكن ضيف بابا تناوله عن آخره

أدارت عينها في كل الاتجاهات وقالت : أوه .. سأقوم بتجهيز المزيد .

• لا بأس .. إننى لست جائعاً .. عندما أعود .. عندما أعود .

ثم ذهب إلى المدرسة وأثناء العشاء إستطردت المسيحية المتوحشة قائلة :
من هو يا عزيزتى ؟ .. هل أعرفه ؟

• أوه عزيزتى .. صديق قديم أشك أنك شاهدته من قبل .

هزت رأسها قائلة : لا بد أنه صديق غريب جداً .. هل تعرف ماذا يعنى أن
يأكل الصديق إفطارك كله نون أن يترك شيئاً ؟

هز إسحق كتفيه : لقد أعد الأولاد لى طعاماً آخر .. لا يهتم .

كانت المسيحية المتوحشة تتمتع بقدر كبير من الذكاء والمكر والحيلة
فتمعدت تأجيل المناقشة فى ذلك الموضوع بعد أن أبدت ملاحظة واحدة ورأت
أن تتوقف حتى تكون مستعدة للكلام عن ذلك الصديق الطائش الذى أصبح
شيئاً أساسياً فى حياتنا أثناء أجازة نصف العام .. كانت الأمطار المستمرة
على مدى إسبوعين دون توقف قد ساعدته فى البقاء طوال اليوم بالإضافة
إلى عدم رغبته فى المغادرة .

تعلمنا من وجود (مايسلف) الشراهة والنهم وأثناء وجوده كانت المسيحية
المتوحشة تشفق على إسحق من قلة أكله وكثرة الإحتفاء بأصدقائه وضيوفه
حتى حدثت فيه ذات يوم وقالت له : ولكن يا عزيزى هل تتعاطى كفايتك من
الطعام ؟

• طبعاً .. هل أبدو جائعاً ؟

• لا .. ولكن .. أريد أن أصنع لك غداً فته البطاطا التي تحبها .. مارأيك

ياعزيزى؟

• أى نوع من الطعام ذلك الذى تتحدثين عنه ؟

• ذلك الذى يصنع من الأورو وطبعاً سوف أستخدم لحم الخنزير

المشوى الذى أرسله لنا الأب من «إيسارا» .

• أوه .. نعم .. نعم .

• أريد التأكد من أنك تتعاطى كفايتك من الطعام .

• طبعاً .. ولم لا ؟ .. إننى موجود غداً ولن أذهب إلى أى مكان .. إذن

هى فكرة طيبة .

ساد السكون فترة قصيرة ثم تحركت بجواررة قائلة : وهل تتوقع أحداً من

الزائرين غداً على الغذاء ؟

قال لها : لا .. لا .. ولكن ربما يأتى السيد (أديلو) .. لا .. لا أتوقع أحداً .

• حسناً لكن إذا حضر أحد وقت الغذاء فعليك أن ترسل أحداً

لإستدعائى من الدكان .. أعنى أنه يمكنك تأجيل هذا الطعام إلى المساء إذا

جاء أحد فلقد صنعته خصيصاً ثم إنه خنزير الأب المشوى من «إيسارا» .

• نعم .. أفهم تماماً .. كما تحيين .

فور وصول (مايسلف) أسرعرت (نوبى) بتنفيذ خطتها المتفق عليها مع

المسيحية المتوحشة فراحت تخبرها بوصوله وبقت مكانها فى الدكان .. كنا فى ذلك اليوم ننتظر بشغف فى الحجرة الأمامية متظاهرين بالذاكرة دون أن نقالب صفحة واحدة من الكتاب حتى جاءت أمى فقفز (مايسلف) من فوق الكرسى وانحنى يقبل يديها بلطف مبالغ فيه ثم قال : صباح الخير مدام .

بإدلتة إبتسامة صغيرة كنوع من المجاملة بينما كان إسحق فى الجانب الآخر من المائدة يخنق إبتسامته وقد كان يعرف ما يتعلق بالخطة دون أن يخبره أحد كما عرفنا بالتخمين أنه سترك الأمور تسير فى مجراها الطبيعى

قالت أمى : فكرت أن أحضر وأرى طعامك بنفسى خوفاً من أولئك الأولاد الذين لا يتورعون عن إتهام كل شىء فلا تجد هذا الطعام الطيب والمصنوع خصيصاً لك .

• ولكن .. الدكان ؟

• أوه .. لا تقلق .. (نوبى) هناك تقوم بعملها كما أن المطر اليوم غزير والشراء متوقف .

ظل وجه (مايسلف) مدفوناً فى الكتاب ورحنا نتهامس من تحت المائدة : ماذا تنوى أن تفعل ؟ .. وما هى خطتها ؟

تسللت إلى أنوفنا رائحة الطعام وكنا نشك كثيراً فى تنوق هذا الطعام .. إنحنرت رعوسنا إلى أسفل متطلعين إلى الرجل المسكين ثم سمعنا صوتاً ينادى

من المطبخ : (وول) .. وول ل ل .

ضربنى أحدهم بكوعه كى ينبهنى وقالوا جميعاً : إنه أنت .. ألا تسمع؟

• نعم .. ماما .

• إذهب وإسأل الرجل اللطيف هل يفضل كوباً من الزنجبيل أم

عصير البرتقال ؟

فعلت ما أمرتنى به وكانت دهشته عظيمة حين قال : (مايسلف) ؟ .. أوه ..

لا يهم .. أى شئ .. شكراً .

إختارت المسيحية المتوحشة بنفسها وناولتنى الصينية ثم تبعتنى .. كان

(مايسلف) متوتراً وأنا أضع الصينية أمامه فوق المائدة .

قال (مايسلف) : أوه مدام .. كرم منك ياسيدتى .. كرم شديد وعليك أن

تساعدينى فى التوجه بالشكر إلى الناظر أيضاً .. إن السيد (سوينكا)

مضياف كبير ورجل لطيف إلى أبعد حد .

• أوه .. ولكننى يجب .. يجب .. إنها روح طيبة جداً وشئ نادر جداً .

تبادلت معه الحديث لمدة خمس دقائق بسرور وإبتهاج ثم قاطعته : أتمنى

أن تلتمس له العذر لفترة قصيرة .

• طبعاً مدام .. طبعاً .

• إن عليه اليوم أن يناقش بعض المسائل العائلية الهامة .

• أووهه .. أووه .

إبتسمت قائلة : مشاكل عائلية .

ثم قالت لإسحق : عزيزى .. أعرف أنك مشغول اليوم لكننا نستطيع مناقشة بعض الأمور أثناء الغذاء .

عدت إلى مقعدى وراح ابن عمى يكتب فى كراسته ^{١٠} .. كانت هى درجة إتقانها للدور فوافقنا جميعاً على تلك الدرجة فقدم (مايسلف) مزيداً من الشكر وأثنى على كرم الضيافة الذى لاقاه ثم إختفى من حياتنا تماماً وأصبح المنزل فقيراً بغيابه .

- شاهدنا رجلاً يرتدى زى الضباط وهو يدخل المنزل دون أن يعلن عن وجوده فسارعنا بالفرار .. ها هو هتتر يأتى إلينا وسوف ينقلنا جميعاً فوق ظهر السفينة ويحولنا إلى عبيد .. كان إسحق مسافراً خارج المدينة والمسيحية المتوحشة فى دكانها ولم نكن قد علمنا بقدم زائر جديد .. هربنا جميعاً إلى الفناء الخلفى واختبأ بعضنا فى المخزن والبعض الآخر فى المرحاض وتسلمت أنا وإثنان من أبناء العم السلم وألقينا بأنفسنا فوق السطح إستعداداً للنزول إلى الشارع من الناحية الأخرى إذا تعقبنا هتتر فوق السطح .. ظللنا هكذا لا نفعل شيئاً سوى أننا زحفنا على بطوننا إلى الجانب الآخر من السطح حتى نتمكن من رؤية الفناء .

ظل الرجل الغريب فى مكانه دون أن يتعقبنا وبدا كأنه يلوح لشيء ما وكانت عيناه متوقدتين ووجهه متأججاً فبدأت أغير إنطباعى عنه إذ لم يكن

مظهره يوحى بالعنف لكننى فكرت قائلاً : ربما يكون شبحاً !!

رفع رأسه وتقدم إلى الأمام وإلى الخلف ثم قال بصوت عالٍ : أين هؤلاء الأوغاد ؟

تقدم الرجل الغريب للأمام وكانت الحجرات خالية من الجميع .. كنا قد رأينا بعض السكارى من قبل فعرفنا أنه مخمور بما فيه الكفاية حتى لو كان هو هتلر أو شبح أو الشر نفسه .

تحرك مرة أخرى للأمام فى إتجاه الفناء وكانت عيناه تحدقان فى أحد أوانى المياه الضخمة الخاصة بنا والتي كانت مدفونة فى الأرض .. كان الإناء المفضل فى البيت محاطاً بالكروتون الفخم من جانبيه وكانت مياه ذلك الإناء مثلجة وطازجة فى أى وقت من النهار .. إتجه الغريب ناحيته ثم مال وهو يفك أزراره وراح يبول فيه .

صرخت بأعلى صوتى ونزلنا السلم بنفس السرعة التى تسلقناها به ونحن نتوجه إليه بالشتائم ثم رحنا نشده بكل قوتنا لكنه ضربنا بيده بسهولة وهو يقول : إبتعدوا عن طريقى .

قفزت فوق ظهره بقوة جعلته ينحنى للأمام وضربته بغطاء إناء الماء الذى كان مليئاً إلى نصفه ثم قفزت فوق رأسه بنفس الحركة فوقعت فوق كومة من التراب ووجدت نفسى محصوراً بين الإناء والحائط لكن أولاد العم أمسكوا به من أحد قدميه وجرجروه إلى الخلف طالبين المساعدة .

ظهر بقية الأطفال من مخابئهم فى نفس اللحظة التى جاء فيها فشاهدوا
الرجل بزيه الرسمى منبطحاً فوق إناء الماء .

زحفت من موقعى وصرخت بأعلى صوتى : إنه هتتر .. هتتر يبول فى
الإناء !!

لكن هتتر لم يتحرك من مكانه وظل ساكناً حتى إقترب الجيران وأحاطوا
به .

كان شخص ما قد إستدعى ماما التى جاءت من الدكان وتعرفت بسرعة
على الغريب ثم صاحت : كنت أعتقد أنه مازال فى بورما .

ساعده الجيران فى الذهاب إلى السرير وكان ينظر إلينا بحب .

سألنا المسيحية المتوحشة أثناء العشاء عن ذلك الغريب فهزت رأسها
ورفضت فى البداية أن تجيب على تساؤلاتنا حتى قالت : إنه عمكم .. كان
دائماً يبدو متوحشاً وقد تمرد على العائلة منذ زمن بعيد فذهب وتطوع فى
الجيش .

كان العم (ديبو) فى الصباح نظيفاً ومتأنقاً يرتدى ثياباً حضارية وكان
يتناول إفطاره وهو جالس فوق مقعد إسحق وبعد عودتنا من المدرسة كان
العم قد ذهب .

توجهنا بأسئلة كثيرة إلى أمى لكنها لم تقل شيئاً سوى أنه ذهب إلى موقع
جديد .

تم تنظيف إناء الماء بالديتول لكن أحداً لم يستخدمه لعدة أيام إلى أن قاموا بتنظيفه مرة أخرى من الداخل والخارج بالصابون ووضعوه فى مكانه لكننى لم أعد أشرب منه بعد ذلك دون إحساس بالقرف .

- كان أخى الصغير (ديبو) لا يتوقف عن شقاوته ولا يخاف شيئاً وذات يوم إختفى (ديبو) مدة طويلة .. كانوا فى المنزل يتوقعون وجوده فى الدكان ولم تكن المسيحية المتوحشة تشك فى وجوده بالمنزل .

إختفى (ديبو) بعد الإفطار مباشرة بعد أن تلقى بعض الضربات والإهانات من بابا فاضطرب أهل المنزل حتى جاء به أحد المسافرين .. كان (ديبو) يهيم على وجهه طوال النهار متجولاً فى «أبيوكوتا» حتى قادته قدماه إلى الجراج وعندما حاول أن يصعد اللورى لاحظ السائق والمسافرون واستجوبه رجل البوليس الذى تركه عند أقرب دكان حتى جاء به مسافر لطيف إلى المنزل .

لم نعرف شيئاً عما فعله إسحق وماما بشأن تلك المغامرة .. أصبح (ديبو) بطلاً ولم يكن خائفاً عند عودته حتى أننى أنا الذى خفت منه لأن أحداً لا يستطيع أن يقامر بمثل هذه المغامرة دون أن يصاب بالذعر .. تعجبت من ماما وإسحق لأنهما لم يستخدما العصا لمثل تلك المعصية التى إرتكبها (ديبو).

كان (ديبو) فى اليوم التالى يقفز ويلهو بحرية كاملة وكأن شيئاً لم يحدث أبداً ولم تكن تصرفاته توحى بأى شئ من مغامرة الأمس فصرنا ننظر إليه

كشخص متميز ومختلف عنا .

بعد عام تقريباً من زيارة العم الغامض أعلنت المسيحية المتوحشة عن تغيير إسم (ديبو) إلى (فيمى) وقالت : إننى أفكر فى تغيير إسمه منذ زمان لأن الأطفال الذين يحملون إسم (ديبو) يصبحون متوحشين .

لم نهتم لتغيير الإسم غير أننى أخفيت دهشتى وفكرت قائلاً : إن أولئك الكبار لا يعرفون أبداً ما يريدون .

كان العم (ديبو) أحد الزائرين الذى إخترقوا حياتنا ذات يوم ولست أدرى لماذا كانت المسيحية المتوحشة متحفظة وهادئة بشأن ذلك العم الذى رحل ولم نشاهده مرة ثانية ..

كان العم (ديبو) قد أمضى معنا ليلة واحدة فقط .

كان العم (ديبو) كالمفاجأة .. كالزوبعة .

(٩)

- كنا نحن أبناء الناظر نقوم فى ليلة رأس السنة بزيارة ذوى الشأن ودائماً كان شخص ما برفقتنا للعمل على رعايتنا وكنا نلتقى فى الطريق بالأقرباء وأصدقاء العائلة وبعض كبار «إيسارا» من الرؤساء ومساعدى الملك والقساوسة وكان معروفاً فى «إيسارا» أن أبناء الناظر وأطفاله لا ينحنون عند تقديم التحية .

قال أحد الرجال معلناً عن وجودنا : (أطفال آيو)

وبعد أن سمعنا إسم إسحق أصبحنا جميعاً فى مكان واحد وقال أكبرنا : (أطفال آيو) جاوا للإحتفال بـ .. (أوبون) .

ثم إستطرد : إنهم لا يجيدون الإحناء وتقديم التحية .. معذرة سادتى أرجوكم ألا تنزعجوا وألا تسيئوا إليهم .

كانت ردود الأفعال مختلفة فأحس بعضهم بالفزع لكون ذلك ضد تقاليدهم وعبروا عن إستنكارهم أما البعض الآخر وخاصة أولئك القدامى الذين يرتدون (١) * etù الأسود فقد انتصبوا واقفين ومضوا يتمتمون وكان بينهم (أوديمو) الرجل الكبير فى «إيسارا» .

(١) ملابس محلية من النسيج ذات قيمة كبيرة .

بعد الإنتهاء من صلاة أحد أيام الأحاد فى الكنيسة ذهبت أنا وإسحق مباشرة إلى قصر (أوديمو) حيث كان عدد من المسئولين يجلسون فى الردهة .. تفحصت وجوههم بعض الوقت فلم أكن قد رأيت أحداً منهم من قبل وبخاصة ذلك الرجل الموشح بالخرز والمرجان الغريب الذى لا يوجد فى «إيسارا» .. كان يتحدث إليهم بكبرياء وكأنه (أوديمو) .

رفعنى (أوديمو) فوق ركبته قائلاً: (١) * A-ah OmO Soyinka, Wa nube wa gobwo وراح يسألنى أسئلة كثيرة عن المدرسة فانطلقت منى الصرخات ثم أمسكنى (كابينزى) ووضعنى على الأرض .. صافحت الحاضرين وكان بينهم رجل طويل ذو ملامح ملكية واقفاً إلى جوار الدولاب يلوح فوق وجهه بالمروحة فى كسل .. إقتربت منه فنظر إلى بغرور وأعلن بصوت صارخ : ما هذا ؟ (٢) * OmO

أصابنى الخوف فتقهقرت إلى الوراء بينما أجاب كثيرون بصوت عال : إنه ابن سوينكا

وكانوا يشيرون إلى أبى المشغول فى حديث خاص مع (أوديمو) قائلين للرجل الطويل : إنهم أطفال الناظر الذين لا يجيدون الانحناء !!

إشتعلت عينا الغريب وتلاذتاً .. حدق فى إسحق والمسئولين والرؤساء ولاحق (أوديمو) بنظراته ثم قال صارخاً وهو يفحصنى : ولم لا ؟

(١) آه .. ابن سوينكا .. تعال وصافحنى .

(٢) طفل من هذا ؟

كان صوته مدوياً وكان الرعب يتملكنى مجرد وجوده .. شعرت بغيظ وإستياء شديدين لوجوده فى ذلك المكان خاصة وأن نظراته لإسحق كانت مليئة بالعداء وكانت هى المرة الأولى التى أمرنى فيها أحد بالإنحناء .. إن تقديم التحية بالإنحناء فى طرق «إيسارا» المكسدة بالأتربة الحمراء ومخلفات الكلاب وبراز الأطفال يبدو شيئاً قذراً .. لا .. لن أفعل رغم إدراكى بوجوب ذلك على الأقل لأبى أو لأوديمو أو بعض الكبار الموجودين فى ضيافته .

لا .. لن أنحنى لذلك الغريب المتعجرف حتى لو أصاب إسحق أو المسيحية المتوحشة مس من الجنون وأجبرانى على ذلك فإننى أيضاً لن أفعل .

كان قدومنا المباشر من الصلاة فى الكنيسة هو ما جعلنى أفكر بما يدور فى رأسى ولم يكن ثمة تبرير قد فكرت فيه من قبل وإنما فقط كنت أستمع لنفسى : (إذا كنت لم أقدم الإنحناء إلى الله فلماذا إذن يجب أن أنحنى لذلك الغريب)؟!

ساد الهدوء فترة طويلة .. ذلك الهدوء الذى لم أتعوده فى مجالس الكبار ثم ما لبث (أوديمو) أن كسر الهدوء والصمت بإطلاق صفارة توحى بالدهشة قائلاً: أوه .. أو .. أو .. و .. و .. ويايا أو !!

ثم قال لإسحق : *Emi su wo re ko?

هز أبى رأسه وأشار بيديه علامة النفى لكن صوت (أوديمو) جعلنى أنظر إليه ثم إلى تلك الوجوه المصابة بالدهشة وفجأة أصابنى الإضطراب

(١) باسم أجدادنا .. هل أنت الذى علمه هذا ؟

فتسللت من الحجرة وجريت طوال الطريق إلى المنزل .

بعد ذلك الحدث أصدر إسحق أمراً بوجود الإنحناء ليس فقط فى «إيسارا» وإنما أيضاً فى «أكية» وفى منزلنا .

- كان (أوديمو) بالنسبة لنا هو صديق إسحق الأول وكثيراً ما كان يأتى لزيارتنا فى «أكية» ويمكث مدة طويلة كانت تبدو مثيرة ولم يكن إسحق معه يملك وقتاً لمتابعتنا فكنا نمارس كامل حريتنا أما (داودو) فلم يكن يبقى وقتاً طويلاً غير أنه كان يترك إسحق مشتت التفكير .

- كانت النسوة التاجرات اللاتى يحضرن التوابل والمسك من «إيسارا» إلى «أكية» يصلن دائماً فى وقت متأخر من الليل وهن يمشين فى أسراب كالعقائل محملات بسلال مليئة باللحوم المشوية وحقائب من القماش مكدسة بملابس من النسيج والمراهم والدهانات المحلية وزهرة البطاطا وعلب من الصفيح بداخلها زيت النخيل .. كن يصلن عند منتصف الليل ويشعلن النار فى الفناء الخلفى لطهى الطعام وكذا من أجل التدفئة وكانت المسيحية المتوحشة تشتري منهن بعض الأشياء ويسعى إسحق للقائهن لإستلام الرسائل ومعرفة الأخبار .. أصبحت هاتى النسوة جزءاً من أهل المنزل أو هكذا أحسنا لما يتسمن به من ثقة فى النفس وحرية فى الحركة .

كن يتحدثن مع إسحق بلهجة غريبة كنا نعتبر أنفسنا محظوظين عندما نفهم جملة أو جملتين فلم تكن هى لغة اليوروبا التى يتحدثن بها .. كنا نجد لغة اليوروبا أما ما كن يتحدثن به فهى لغة جديدة .

فى الفناء كانت النار والليل وثمة أصوات كغناء الأجبونى ذى النغمات
السحرية وكان المخزن هو مكان إقامتهن أما فى الطقس الحار فقد كن
ينشرن حصائرهن فى الهواء الطلق وينامون حتى موعد رحيلهن عند الفجر
قبل أن نستيقظ .. كانت النساء تبع كل ما يأتين به فتصير السلال
والحقائب فارغة سرعان ما يملأها قبل الرحيل بأنواع أخرى مختلفة من
البضائع لبيعها فى «إيسارا» .

– كنت أنا وإسحق نحمل حقائبنا وأشياءنا فى الطريق إلى المحطة وركبنا
اللورى الذى توقف فى «إيبيرو» التى تبعد عن «إيسارا» سبعة أميال ..
إنتظرنا مدة طويلة أن نركب وسيلة مواصلات أخرى ولما لم نجد شيئاً قرر
إسحق أن نواصل بقية المسافة سيراً على الأقدام فاقترسنا الأشياء
والحقائب فيما بيننا وبدأنا السير وعندئذ تذكرت النساء اللاتى كن يسافرن
عند الفجر بأحمالهن الثقيلة .. أه .. لقد عرفت لماذا كن يصلن إلى منزلنا فى
منتصف الليل .

قال أبى : أحياناً كن يمشين يومين كاملين ويتوقفن فى قرية بالطريق
لقضاء الليل .

فكرت فى المسافة التى قطعناها باللورى فقلت بدهشة : إنهن يمشين كل
ذلك الطريق !!

فلم أعد أشعر بالتعب وكان إشتياقى ينمو كلما إقتربنا من منزل النسوة
ذوات اللون الأسود اللاتى يقطعن كل ذلك الطريق من أجل البيع والشراء

والتخلص من اللحوم المشوية والملابس النسيجية واللاتى يتحدثن بلغة ذات أنغام حزينة .

كنا على أبواب «إيسارا» حين أشرنا إلى اللورى القادم من بعيد .. كانت سحابة حمراء من التراب تغطى «إيسارا» .. كانت السحابة كبيرة وكأنها تغطى سطح الكرة الأرضية .

إنهم أولئك الباعة المتجولون ضيوفنا الغامضين فى «أكية» الذي إندفعوا لإرشادنا .. ها نحن الآن فى منازلهم وديارهم التى تتكون من أكواخ وعشش طينية بعيدة عن بعضها البعض .. شعرت بالحزن وأصابتنا تلك الديار بالكآبة ورغم معاملتهم اللطيفة معنا إلا أننا أحسنا بمدى ما يعانون من تخلف .

لم تكن «إيسارا» مكاناً صحياً فالمرائح عبارة عن حفر فى الأرض وينتشر براز الأطفال فى كل مكان مما يجعل الكلاب تطوف حوله بكثرة لإلتهامه .. كان البراز ينتشر فى كل مكان عن طريق التصاقه بالأقدام أو عجلات الدراجات وعربات اللورى التى تعبر فى المناسبات وكانت أيضاً تلك الأرض غير المزروعة حيث يجلس المراهقون بين الوسخ .

كان التفكير فى المحظورات التى يجب علينا أن نتجنبها كتناول الطعام خارج المنزل أو مصافحة الغرباء بالأيدى قد جعلنى أبقى مع أبى فى منزله المصنوع من الطين .. كان منزلاً نظيفاً ولم تكن تلك النظافة شيئاً غريباً بالنسبة لنا .

تعجبت ذات مرة من تلك القذارة فسألت إسحق : لماذا لا يأتى مفتشو

الصحة إلى هنا كما يهبطون علينا في «أكية» أحياناً ودون سابق إنذار ..
يجب أن يأتوا إلى هنا على الأقل في الفترة التي تبقى فيها .

نظر إسحق حواليه بغضب وكأ أنه لم يسمعنى ثم قال فجأة : يجب أن
تذكرنى بذلك عند عودتنا .. لا تنسى يا (وول) أن تذكرنى .

كان أبى مشغولاً بأشياء عديدة فلم يستطع الوفاء بوعدہ أن يأخذنى إلى
مزرعته فاقترح على الذهاب إلى (برودا بوبا) لأسأله إصطحابى إلى مزرعته
.. تعب (برودا بوبا) كثيراً فى الحصول على موافقة المسيحية المتوحشة لكنها
كانت نزهة ممتعة .

كان (برودا بوبا) أحد جيراننا يعمل حلاقاً وكنا نجلس بجوار باب دكانه
ننتظر دورنا فى الحلاقة حيث كنا نحس ألماً شديداً فى الرأس .. كانت أمى
ترسلنا إليه فى أعياد الميلاد والاحتفال بالعام الجديد للإعتناء برعوسنا عناية
خاصة .. وافقت المسيحية المتوحشة على أن أذهب إلى مزرعته بعد أن بذل
(برودا بوبا) مجهوداً كبيراً فى إقناعها .

عند الفجر إنطلقنا نحو مزرعة (برودا بوبا) الذى كان فى إنتظارنا خارج
الباب حين صاح : هيا .. سوف أذهب بك إلى المدرسة .

ثم ناولنى الفأس قائلاً : ها هو قلمك وبعد ساعة من السير ستجد الكتاب
فى إنتظارك هل أنت مستعد ؟

لم أكن مستعداً أبداً .. قفزت إلى أسفل ووجدت نفسى بينه وبين

(بيمى) .. إمتلأت رثتى بالندى ورطوبة الصباح ولم تكن الأثرية قد سادت بعد .

توقفنا عن السير بعد ساعة كما قال (برودابوبا) ثم دخلنا إلى الكوخ الصغير بالمرزعة وتناولنا إقطاراً سريعاً قبل الخروج للعمل فى الأرض .

كنا نضرب الأرض بالفأس ونجمع الفاكهة فى سلال كبيرة ولم أستطع أن أفهم معنى ذلك اللون الأخضر الذى يغطى المكان .. كانت الأرض تكتسى بالخضرة رغم أنه ليس موسم المطر .. أه .. إن الأرض ناعمة وغنية وخضراء

سألت (برودا بوبا) فأجاب شارحاً : إن الجبول الكبير يحيط بالأرض هنا والماء يجرى دون توقف ولقد عبرنا ونحن قادمون أحد الأنهار الصغيرة .

كان (برودا بوبا) يجنح من وقت لآخر إلى السخرية والمرح .

قال : هل ترى العقرب ؟

فخرجت من جلدى من شدة الفزع .. كان بعد الانتهاء من العمل الرئيسى يختفى بين الشجيرات ثم يباغتتى من الخلف ويضع بعض الفروع فوق رقبتى حتى قلت له ذات مرة : حسناً .. إذن لا تغضب لو إعتقدت أنك شعبان فسارعت بضربك بالفأس .

كان شعبان واحد قد رأيناه فى ذلك اليوم حين تسلق (بيمى) شجرة الكولا لإحضار بعض البنور المتجمعة فى عناقيد فوق فروع الشجرة ونادى برقة :
(برودا) !!

• هل تنادى (بيمى) ؟

ساد الصمت لحظة ثم سمعنا تحركات (بيمى) بين الفروع وكأنه يقوم بعمل سرى مما أصاب (بوبا) بالحيرة والإرتباك فصاح غاضباً : ماذا تفعل؟ .. إن بنور الكولا ليست هناك .

قال (بيمى) المختبئ تماماً بين الفروع : شعبان .. يوجد شعبان يلتف ببشاعة حول أحد الفروع حيث توجد بنور الكولا .

نظرت إلى (برودا بوبا) بإرتياح ..

كان قلقاً فقال بصوت عال : (بيمى) .. هل الشعبان يتحرك ؟

• لا .. لا يتحرك لكنه يرانى ..

قال (برودا بوبا) ضاحكاً : كان لابد أن يراك .. أتريده أن يراك تتسلق نحوه ثم يتركك وينام ؟ والآن .. إستمع .. عليك بالتحرك بعيداً عن الجذع .. هل تستطيع ؟

أجاب (بيمى) : طبعاً .

ثم راح إلى الإتجاه الآخر من الجذع .

• حسناً .. إستمع لى .. لا تتحرك بظهورك ناحية الجذع وإنما عليك بالنظر إلى أسفل وانتبه للفروع التى تحتك فقد يكون أحدها حقيقياً فيهبوى بك.

توقف (بيمى) قليلاً وسمعنا حفيف الأوراق ثم قال : نعم .. يوجد .

• إذن يجب ألا تقفز مرة واحدة وإلا تحطمت رقبتك .. لاتحاول القيام بأى حركة مفاجئة ولكن إهبط ببطء وكأنه لا يوجد ثعبان يراك .

فعل (بيمى) الحيلة المطلوبة وقد أصابه فزع شديد حين وقف فوق غصن هش فاندفع جسده باتجاه الأرض ولحسن حظه فقد سقط فوق قطعة طرية من الأرض ثم رفع رأسه قائلاً : (برودا) .. إنه ضخّم .. إنه ثعبان فظيع وهائل .. لا .. إنه ليس ثعباناً على الإطلاق .. أقسم أنه ساحر .. نعم إنه ساحر .

تمتم (برودا بوبيا) : أوه .. هو كذلك ؟ هلا أعطيتنى بعض الحجارة ؟ ودعنى أرى مكانه بالتحديد كى الألقه بنظراتى .

أشار (بيمى) إلى عنقود بنور الكولا فنظرنا فى إتجاه إشارته وماهى إلا لحظة قصيرة حتى تعرفت عليه .. كان شبيهاً بأحد أغصان الشجرة فيما عدا لونه الأسود ونبضات جسده .

أوماً (برودا بوبيا) برأسه راضياً : حسناً .. كنت أتساءل عن الشئ الذى سناكله مع البطاطا فى الغذاء .

إعتقدت إنه يمزح فقلت : إن أحداً لا يأكل الثعابين .

نظر إلى وثمة سحر غامض كان يشع من عينيه : أه .. لقد نسيت .. أبناء المدرس لا يأكلون مثل هذه الأشياء .. إنهم يأكلون الخبز والزبد .

• لا .. ليس هذا ما نأكله لكن الثعابين لا يأكلها أحد .

• نعم .. سنرى الآن .. إعطنى يا (بيمى) ذلك الفأس وأنت يا ابن المدرس
ثبت نظرك على الثعبان .. لاتنس يا (بيمى) أن تجمع بعض الحجارة.

قلت له متسائلاً : لنفرض أنه قفز إلى الأرض ؟!

قال : تحدث معه بالإنجليزية .

ثم تركنى وحيداً فرحت أفكر بعمق طوال عشر دقائق فى ذلك الثعبان ..
كان ضخماً لا يتحرك يبدو أنه لن يهبط إلى الأرض بسرعة .

هكذا فكرت غير أننى فى الحقيقة لم أكن أعرف طبيعة وعادات الثعابين
.. كان الكبار فى «أكية» يقتلون الثعابين التى نقابلها قبل أن أقترب منها لكن
الثعابين التى رأيتها لم تكن أبداً فى مثل هذا الحجم .

عندما عاد (برودا بوبيا) لم أستطع أن أتأمله .. كان ممسكاً بالثعبان فى
هدوء مثل الهدوء الذى حاور به المسيحية المتوحشة حين أقنعها باصطحابى
إلى المزرعة .

قال بلهجة أمرية : إعطنى الفأس .

تقدم (بيمى) لإعطائه الفأس لكنه قال : لا .. لا .. دع (وول) يقدمه

لى .

كان واقفاً بالقرب من الثعبان فتناولت الفأس وترددت كثيراً وأنا أناوله

إياه ماداً ذراعى عن آخره .

هز رأسه قائلاً : لا .. يا ابن المدرس .. عندما تناول الفأس أو السكين لأحد
يجب أن تمسكها دائماً من النصل .. تأكد أنك تسلمه اليد التي تمسكها بها
وليس النصل .. ذلك ما نفعله فى المزرعة .

فعلت ما أراد قائلاً : ها هى .

• أوه .. ستكون فلاحاً فيما بعد .

• سوف أكون طبيباً

• لا بأس .. لقد قطعت رأس الثعبان بضربة واحدة رغم أنني حلاق
كما تعرف وأملك مزرعة أعتنى بها وإذن يمكنك أن تكون ماتريد وتعمل فى
مزرعة فى نفس الوقت .

تذكرت إسحق .. إن بابا يعمل ناظراً وهو أيضاً يعتنى بالحديقة .

رمى الفأس إلى (بيمى) الذى يعرف كيفية الإمساك به ثم راح يحفر حفرة
فى الأرض .

قلت : لماذا تزرعها ؟

قال : تذكر دائماً أن رأس الثعبان تظل خطيرة حتى بعد قطعها فقد يمر
شخص ما فوقها وحينئذ يتسرب السم إلى جسده .. يجب دائماً دفن رأس
الثعبان أو حرقها ومن الأفضل أن يكون ذلك بعيداً عن الطرق التى يرتادها

الناس .

قدم لى الأخ (بوبا) بطاطا من مخزنه وقال : هل تستطيع أن تقشر

البطاطا ؟

• إننى أحيانا أقوم بشوائها فى المنزل لكل أفراد العائلة .

حسنا .. وسوف يشعل (بيمى) النار وأسلخ أنا الثعبان ولأنك لا تاكل

الثعابين فلك أن تشوى البطاطا بزيت النخيل .

كان كل منا يجهز وجبته الخاصة وكنا قد أحضرنا الفلفل من المزرعة

وأعدنا قليلا من الخضروات ومن المخزن جئنا بزيت النخيل وبعض

التوابل .

إنتشرت رائحة لحم الثعبان فى المكان بعد ساعة وقد كانت بحق رائحة

جميلة تلاشت بجانبها رائحة الأوراق الخضراء الموجودة فى المزرعة .

عندما أوشك الطعام على الانتهاء نظر (بيمى) إلى أعلى : (برودا) .. لماذا

لا نستخدم مسحوق البطاطا ؟

• أنت تعنى البطاطا المهروسة

هز (بيمى) رأسه : نعم .. أعرف أن بعض الناس يتقاتلون مع أعز

أصدقائهم من أجل البطاطا المهروسة .

• أوه .. أنا لا أعرف أحداً يفعل هكذا ولكن دعنا ننتهى من هذا ..

إنه أول يوم فى المزرعة بالنسبة لول .

قلت معترضاً : نحن نملك مزرعة فى الطريق المؤدى إلى «أوزيل» خارج المدينة ولقد ذهبت مع إسحق مرة أو مرتين وكان إسحق يستأجر أحد الفلاحين للعناية بها .. إنه فعلاً يحسن العناية بها .

• رائع .. إن والدك المدرس يملك مزرعة وهو ابن فلاح لكن عمله يجعله لا يملك الوقت الكافى للاعتناء بها كى تصبح مثل هذه المزرعة فهل قضيت أنت مثلاً أسابيع طويلة فى مزرعتكم ؟

هززت رأسى بالنفى .

• هل ترى .. وهل قضيت ليلة واحدة ؟

• أبداً .. ولا حتى ليلة واحدة .

• وهل جربتكم طهى إناء من الطعام مثل هذا ؟ أو تناولتم البطاطا المهروسة فى المزرعة ؟

• نحن لا نملك * abule* مثلك .

• هذا بالتحديد ما أتحدث عنه .. لبيتنا نقضى الليلة هنا إذا وافقت زوجة المدرس .

يالها من فكرة رائعة أن نقضى الليلة هنا فى المزرعة .. شئ جميل حقاً

* كوخ أو عشة .

قلت دون تفكير : نستطيع إذ يمكنك أن تخبرهم غداً بأن الوقت كان متأخراً وأن الظلام قد هبط علينا فقررنا البقاء والمبيت هنا .

هز الأخ (بوبا) رأسه قائلاً : إذا لم نرجع بعد الغروب فسوف تقلب الدنيا بحثاً عنك .. هيا تعال وساعد (بيمى) فى سلق البطاطا بالماء الساخن فإننى جائع .

كنت مثله جائعاً وعندما بدأنا فى تناول الطعام كنت متأكداً بأننى لن أقرب لحم الثعبان لكننى اكتشفت أنه ليس لحمًا لزجاً أو متعدد الألوان .. كان لحمًا ذا لون أبيض جذاب مثل لحم الفراخ والأرانب فقررت أن أتذوق قليلاً منه ثم عرفت أن طعمه أيضاً لا يختلف كثيراً عن طعم الفراخ والأرانب وحمدت الله بينى وبين نفسى أنه لم يحرمنى مثل ذلك النوع من الطعام كما أننى أستطيع أيضاً التباهى بذلك فى «أكية» عندما نعود .

هز (برودا بوبا) رأسه باستحسان متعجباً من شهيتى فى تناول اللحم فألقى بقطع أخرى فى طبقى .

كانت إستراحة قصيرة بعد الغذاء إمتدت إلى ما قبل غروب الشمس حيث بدأنا فى العمل من جديد .. كنا نجمع البذور ونعرض النشا للشمس ثم إنطلقنا فى طريق العودة محمليين بالبطاطا وسله من البرتقال وبعض الخضروات والفلفل .

كنا فى منتصف الطريق بالقرب من مفترق أحد الطرق حين سمعنا صرخة إنسان .. توقف (برودا بوبا) وأشار لنا أن نلتزم الصمت ونصغى

السمع .. كان شخص ما يئن ويتألم وكانت صرخاته متتالية .. إستطعت أن أسمع صوته وهو يقترب شيئاً فشيئاً .. إنه صوت رجل لكن صرخاته كانت كصوت طفل مضروب .

أبصرنا الرجل فصرنا نلهث بشدة .. كان وجهه وذراعاها ورقبته متورمة إلى ضعف حجمهما العادى وكانت أيضاً بعض التجاعيد بحجم *awuje .. حاول الرجل أن يمشى ولم يكن يقوى على الكلام .

قال الأخ (بوبا) مشفقاً : إنه من تلك القرية القريبة .

وقلت متسائلاً : أى شىء فى الكرة الأرضية فعل ذلك بوجهه ؟

أجاب كلاهما : النحل .

ثم أضاف (بيمى) : لا بد أنه كان يجرى .

قلت : وماذا كان عليه أن يفعل ؟ لو كنت أنت مكانه لفعلت نفس الشىء .

• أوه .. لا .. من الخطأ أن تفعل ذلك .. يجب أن تلقى بنفسك بسرعة

على الأرض ثم تتدحرج بعيداً عن المكان .

• وإذا كانت الأرض مليئة بأوراق الشجر اللاسعة فكيف تستطيع

عندئذ أن تتدحرج .

قال (برودا بوبا) : عليك إذن أن تنحنى نحو الأرض إلى أقصى ما

* نوع من الفول كبير الحجم

تستطيع حتى تقترب من الأرض ثم تبدأ فى التحرك بعيداً ولكن لا تقف ولا تجرى .. فقط إبق على الأرض وتحرك بهدوء حتى لو أصابتك الأشواك .

- قبل الإنتهاء من إقامتنا عند أقاربنا من النسوة التاجرات نجحت فى التعرف على مجموعة من الأولاد كانوا كالعادة أكبر منى وحين ذهبنا للصيد بقيادة (چيمو) كنا نحمل النبال والعصى والحجارة .. قسم (چيمو) المجموعة إلى نصفين يحمل أحدهما النبال والحجارة بينما يعمل النصف الآخر بالمراقبة وقد كنت طبعاً من حاملى النبال والأحجار لكننى لم أستطع أن أزعم أننى فى مستوى (چيمو) وأصدقائه الذين كانوا يستطيعون بسهولة أن يوقعوا بالسنجاب على الأرض بضربة واحدة من النبله رغم أننى فى «أكية» ضربت بالنبله سحلية أو إثنين وطائراً صغيراً لكننى عقدت العزم على ضرورة أن أتفوق على نفسى وأصبح ضارباً ماهراً .

تحركنا نحو الشجيرات فى صف واحد وكنت أضرب الحفر وقطع الخشب المتناثرة بالعصا وأهز الشجيرات .

كان (چيمو) ومن معه من حاملى النبال والأحجار والعصى والهرارات ينتظرون فى الجانب الآخر من الأرض لما تحركت بإتجاه شجيرة أخرى وهزتها فأصابنى فى الحال ألم حاد فى جبهتى .. تطلعت حولى فكانت الدبابير والنمل الكبير .. تذكرت تعليمات (برودابوبا) وقمت بتنفيذها كما لو أننى أقوم بأحد التمارين .

إن المرء دائماً فى «إيسارا» مكبل بالتساؤلات ولا شئ فيها يبعث على

الإستقرار .

أعلن (جيمو) ضرورة أن نتوقف عن الصيد ولم تكن قد أصابتنى سوى لسعتين .

قال (جيمو) يؤنبنى : من الممكن أن تصاب بالحمى .. لا أحد يتوق أن يكون مسئولاً عن مصائب أبناء المدرس .

هل كان من سوء الطالع أن أكون إبناً للمدرس لكننى على أية حال كنت قادراً على إنقاذ نفسى فتحملت جروحى وآلامى بشجاعة حتى عدت إلى المنزل وشرحت لهم كل شئ .

كانت رأس أبى مثل رعوس القساوسة لكنها عنيدة ومليئة بالأفكار والإشعاعات وكانت كالحصن المنيع حتى أننى إعتقدت فى يوم من الأيام أن الرصاصة لا تستطيع إختراق تلك الرأس التى تحتفظ بالكثير فى داخلها دون البوح به لكنها كانت بشعرها الغزير ناعمة كالحديد المطروق وأصغر حجماً من رأس إبنه .

كنا نتناقش بشجاعة وكنت أعرف أنه لا يؤمن إلا بما يعتقد مثل الأجوبنى فى «أكية» أو مثل القساوسة بمختلف أنواعهم وأشكالهم وكذلك مثل المسيحية المتوحشة وصديقاتها المتدينات اللاتى يمشين فى الشوارع والأسواق والطرق فى نهاية كل إسبوع من أجل الدعوة إلى كلمة الله .

كنت فى قرارة نفسى خائفاً من الأب الذى بدا لا مبالياً بكلمة الله عندما

حكيت حادثة النحل وقال : «أوجن» يحمى أتباعه .

قلت له : لقد سمعت بهذا الإسم من قبل .. إن أوجن شرير وعابد للأصنام .. إنه يقتل الناس ويحارب الجميع .

• أهذا ما علموك إياه ؟

• نعم .. أليس ذلك حقيقياً ؟

حك ذقنه واخترقنى بنظراته ثم سألنى سؤالاً غير متوقع : هل يضربك زملاؤك؟

• أحياناً لكنهم غالباً ما يخافون لأننى ابن الناظر .

• هل أنت الذى يخبرهم بذلك عند بداية الشجار ؟ .. لا بد أنك أنت

الذى يقول لهم ألا يضربوك لأنك ابن الناظر !!

• لا .. أنا لا أقول ذلك .. إنهم يقولون من تلقاء أنفسهم .

• ماذا تعنى ؟ كيف يقولون ذلك ؟

• إنهم يشيرون بأصابعهم نحوى قائلين : أنت محظوظ .. أه لو لم

تكن ابن الناظر . أعتقد أنهم يخافون الفصل من المدرسة إذا ما لمسوني .

• وهل تعتقد أن (أيو) يفصلهم إذا ما فعلوا ؟

• لا .. إن أحداً لا يخبره بأننا كنا نتشاجر وإذا حدث وعدنا بملابس

ممزقة فإنهم يعاقبوننا وكنت أتعجب لما كان يضربنى علانية وبشكل غير عادل .. ماذا ترى فى ذلك يا أبتي ؟ .. يضربوننا بالخارج ونعود إلى المنزل فيضربوننا من جديد .. ليس ذلك من العدل فى شئ .. أليس كذلك ؟

تلاأت عينا الأب بفرح داخلى ثم نهض متجهاً إلى الركن البارد وشد برميل النبيذ فسارعت بإحضار القنينة من الدولاب وقلت : إن «أكية» كلها تعرف أنهم يجلدوننا بالسياط إذا ما تورطنا فى قتال أو شجار مع أحد لكن الذين لا يحضرون إلى مدرستنا لا يهتمون ولا يخافون وإنما يقولون باستفزاز : قاتلنى مرة أخرى إذا كنت تجرؤ .. ثم يصوبون ضرباتهم بسرعة ويلوذون بالفرار أو نلوذ نحن بالفرار .

نظر إسحق نحوى بقصد وقال : أمتأكد أنت أنك لا تجرى لأنهم أكبر منك ؟

• أوه .. إنهم جميعاً أكبر منى فأنا لا أذكر أننى تشاجرت مع أحد فى مثل سننى ..

لكننى فجأة تذكرت ثم أضفت : ماعدا مرة واحدة مع (ديبو) .

تراعى أمامى المشهد كاملاً فشرحته للأب ثم سألته : أبى .. إنهم ولا شك قوم ظالمون .. إنهم يعاقبوننا عندما نتشاجر بالخارج وفى نفس الوقت يثيرون أذى نحوى !!

ظل الأب يهرش نهاية ذقنه وهو يقول : سوف تفهم فيما بعد .. إنهم

يحاولون فعل الصواب لكنهم يتصرفون بطريقة خطأ .

ملاً كأسى إلى منتصفه وكأسه إلى الحافة حتى كادت الرغوة أن تتساقط فسارع بإحتسائها .. كنت أرشف من كأسى مراقباً وجهه الذى إكتسى بالعبوس ثم قال بقرف : ذلك الرجل كسول فالأشجار التى يستخدمها فى صناعة النبيذ سيئة وقديمة .. إن كل الأشجار فى مزرعة (لاريلو) قديمة وسيئة.

ثم هز رأسه مؤكداً : سوف أرى ذلك^(١) * Alakori .

عاود ملء كأسه بنفس الطريقة وهو يزيل^(٢) * orogbo ويفتت قشرتها الرفيعة بأصابعه وقال : دعنا نواصل حديثنا .. إن الأب يريدك أن تلتحق بمدرسة الرجل الأبيض فى «أبادان» .

• كلية الحكومة؟! .. لكنى إنتهيت توأ من المرحلة الثالثة ولا يزال الوقت طويلاً .

• ليس طويلاً كما يرى الأب .. إن أبو يعتقد فى العقول وليس فى الأجساد .

تجهم فجأة وقطب وجهه : إنتظر .. هل قلت أنك فى المرحلة الثالثة؟

• نعم ولقد بدأت فى المرحلة الرابعة .

* (١) شخص لا أمل فيه .

* (٢) نوع من البندق يستخدم كمنبه .

راحت رأسه المليئة بالأفكار تصعد وتهبط مثل أنثى السحلية : نعم .. ذلك
ماقاله والدك أى أنك فى نهاية العام القادم سوف تنتهى من المرحلة الرابعة
وهو يريدك بعد ذلك أن تلتحق بالمدرسة الثانوية .. يجب أن تتقدم لإختبار
المدرسة الجديدة .

• نعم .. سوف أجتاز كلا الإختبارين .. مدرسة «أبيوكوتا» ومدرسة
الحكومة.

أوما برأسه مرة ثانية : وإذن فانت الآن فى الثامنة والنصف تماماً من
عمرك .. أليس كذلك ؟

• نعم .. تماماً

• إذا دخلت تلك الكلية الحكومية فسوف تغادر المنزل وتقيم فى
المدرسة أى أنك ستكون مسئولاً عن نفسك لأول مرة دون مساعدة والديك ..
سيكون ذلك عند بلوغك تسع سنوات ونصف فهل أقول الصواب ؟

قلت له بأنه على صواب وأن كل ما قاله صحيح وكنت أعرف ما تؤدى إليه
هذه الخطوة فأكدت له بأننى لست خائفاً من مغادرة المنزل لكننى فى الحقيقة
كنت قلقاً وتملكنى اليأس من الفكرة ولم أكن راغباً فى أن يقول لإسحق أننى
لم أعد صغيراً .

• أتعتقد أننى لست صغيراً لمغادرة المنزل أيها الأب .. أليس
كذلك؟

• لا .. إن الأطفال يتركون منازلهم لأغراض أخرى أيضاً وليس فقط من أجل الدراسة .. لا .. كنت أفكر في أن الآخرين سيكونون أكبر منك كثيراً تماماً مثل زملائك في مدرسة (أيو) الذين يكبرونك أيضاً .

• ولكنني أتفوق عليهم جميعاً في الفصل ولا أعانى أية مشكلة على الإطلاق.

• نعم .. لقد أخبرني والدك بذلك لكنك لم تفهمنى حتى الآن .. إن الناس لا تذهب إلى المدرسة الثانوية من الإبتدائية مباشرة .. إنهم غالباً يلتحقون بالمستوى السادس الأوى حيث يحصلون على شهادة «الأساميند» ثم بالتعليم الشعبى ويستطيعون عندئذ العمل كمدرسين أو مفتشى صحة أو مرشدين في السكك الحديدية

إبتسمت لكن الأب أساء فهمى حين قال : لاشئ يدعو للضحك .. إنهم يعملون بهذه الشهادة وبعد أن يوفروا منها الكثير يلتحقون بالمدرسة الثانوية حيث يحاولون ويحاولون عدة مرات أن يصل إلى المستوى الثامن لكن معظمهم يتوقف عند هذه المرحلة والقليل جدا من يصل إلى المرحلة الأخيرة .. والآن .. هل ترى ما أقصد ؟ وهلى تفهم ما أعنى ؟ .. يجب أن تفكر في زملائك بالمرحلة الثانوية .. إنهم ليسوا مثل زملائك الأكبر منك في المدرسة الإبتدائية وإنما ستراهم رجالاً وقد تجد بينهم متنزجين يخفون طفلاً أو طفلين في أحد الأركان .. سوف تشارك رجالاً في مقاعدهم .

قال ذلك وحك ذقنه وكان يضحك بصوت مكتوم وهو يقول : سوف يأتون

بصابون الحلاقة والامواس .

إنتهى من ضحكاته المكتومة وتظاهر بالوقار من جديد : إن (أيو) طموح جداً فهو يريد إرسال إبنة إلى المعركة .. صدقنى فإن عالم الكتب هو ساحة للحرب .. إنها أكثر المعارك ضراوة .. أكثر من تلك التى إعتدنا أن نسمع عنها فهل تعتقد أن أولئك الرجال سيسعدون بوجودك ؟ فلتبدأ فى منافستهم ..

ملاً كأسى مرة أخرى وقال : إشرب نبيذك فهو خفيف تماماً ولا يترك أثراً وحتى لو شربت القنينة كلها فلن تشكو (إينيولا) لكونى جعلت منك سكيراً .

أهـ .. (إينيولا) .. كان الأب واحداً من القليلين الذين يدعون المسيحية المتوحشة بهذا الإسم .. (رانسوم كوتى) ، (داودو) ، (أوديمو) وكذلك (مورون) هم الذين كانوا يدعونها بهذا الإسم بالإضافة إلى واحد أو اثنين من الأقرباء الذين كانوا يباغتوننا من حيث لا ندرى ثم يتلاشون كالزبوعه أما الآخرون فكانوا يقولون ماما (تينى) أو ماما (وول) أو *Iyawo الناظر .

ظل الأب يراقبنى وينظر إلىّ بطريقة متعمدة وهو يقول : أياً كان الأمر فإن الإنسانية فيها الخير وفيها الشر واليأس هو الذى يحول بعض الناس إلى أشرار ويشعل نار الحسد والغيرة التى تجدها فى كل مكان .. نعم فى كل مكان .. هل تعرف سبب وجودى ؟ أو من أجل أى شئ أحيأ ؟

أصابنى الإرتباك وتلعثمت ولم أستطع أن أفهم ما يقول : أنا لا أفهم!!

مال بذقنه ناحية رقبتة وبدأ يهزها مثل الديك الصغير : أوه .. أتعتقد أننى

* زججة

جئت بكم إلى هنا بمناسبة العام الجديد دون أن أحذر منكم؟ يوجد الكثير في العالم .. إن العالم ليس هو عالم المسيحيين أو عالم الكتب .. أه .. كفى ذلك اليوم فكلانا لديه أعمال للغد .

رحت أفكر في أعمال الغد التي تحدث عنها .. هل هي زيارة أخرى للمزرعة لكنها بالطبع ستكون مزرعة الأب هذه المرة .. لم أستطع إحتمال توقعاتي فبادرت بالسؤال : أى أعمال تعنى ؟

إنتصب واقفاً : أوه .. نعم .. لقد نسيت أنهم أخبروني بأنك لا تتوقف عن إلقاء الأسئلة .. إذهب وألعب مع أصدقائك فلقد أعددت كل شئ مع والدك لكننى فقط لم أحدد اليوم والآن فلنواصل حديثنا غداً .

لاحظ أننى قلق لعدم تقديم أى تفسير عن سؤالى فهز رأسه قائلاً : غداً .. لكنك على أى حال ستعود الليلة وتنام هنا .. هيا إذهب .

- كان إسحق منذ اللحظة الأولى التي وصلنا فيها إلى «إيسارا» ينام فى منزل الأب وكنا نحن الأطفال والمسيحية المتوحشة نشغل المنزل بدونه .. إنفصل تماماً عن عائلة «أكية» وراح يندمج مع مدينته .. كانت تشغله بعض الأمور الثابتة كإجتماعات المدينة وإجتماعات العائلة وجلسات مجلس الكنيسة .. كانت فى إنتظاره مئات من الواجبات على مدار السنة وكان يمضى معظم الوقت مع (أوديمو) الذى كان يخفف من أحاديث إسحق الصعبة فى «إيسارا» بمساعدة واحد أو اثنين من بينهم أبى الروحى الذى هو زوج السيدة التى كان مفروضاً أن تصبح زوجتى .

تساءلت كثيراً كيف أن (أوديمو) لا ييأس من أولئك الرفاق .

كان من اليسير لواحد منا أو أكثر أن يبقى وينام فى منزل الأب فلم تكن ثمة تعليمات صارمة تمنع ذلك خاصة وأن الحصائر كانت متوفرة بالإضافة إلى السطح الملىء بروث البهائم الذى يستخدمونه كحجرة للنوم .

كنت أقضى نصف ليالى «إيسارا» فى منزل الأب رغم الناس الكثيرين الذين كانت ترسلهم المسيحية المتوحشة لإستدعائى وعند صدور أول أمر مباشر أن أنام هناك لم أستطع أن أغالب الأرق حتى وقت متأخر من الليل .

إستيقظت مبكراً فأبصرت الأب ينحنى نحوى ماسكاً المصباح فى يديه .. لم تكن الشمس قد أشرقت بعد وكان إثنان آخران موجودين فى ركن الحجرة أحدهم رجل كبير والآخر ولد صغير لكنه أطول منى ودون أن أدرى رأيت نفسى أنظر فى كل الإتجاهات بحثاً عن أبى ولم أكن أفكر فى شئ سوى الجولة التى سنقوم بها .

قلت : إلى أين نحن ذاهبون ؟

• هل إستيقظت تماماً ؟

• نعم .

• إذن .. إذهب واغتسل .. لقد تركت دلو الماء فى الفناء .

فعلت ما أمرنى به وفى الطريق شاهدت طبقة من الطين الخزفى بين

الرجل الكبير والولد وزجاجة من زيت النخيل وبعض العلب الصغيرة المليئة بالبودرة .. كان الطبق المسطح يحتوى قطعاً معدنية تشبه المحار .

تساءلت كثيراً بينى وبين نفسى وأصابنى الإرتباك .. إنتهيت من الحمام وأنا أرتعش من برودة الصباح والإحساس بالتشاؤم وعند عودتى من الفناء لاحظت إعادة تنظيم الكراسى والمقاعد الصغيرة وكانت العصا قد تحركت من مكانها عند الحائط إلى منتصف الحجرة .. كان الرجل الكبير واقفاً والولد راكعاً بجانبه يعيد تنظيم القوارير والأباريق والصوانى ومجموعة غريبة من المعدات والأجهزة والآلات .

قال الأب بلغة الأمر : تعال وإجلس هنا .

كان يشير إلى الكرسي الخشبي فقمتم بإطاعته ثم تحرك من الباب وأصبح فى مواجهتى حين قال : لعلك تتذكر ما تحدثنا عنه بالأمس !؟

أجبت : نعم .

• عظيم .. والآن إستمع بانتباه .. سوف تعانى الكثير فى خطوتك

القادمة .. إنظر لى !!

نظرت بسرعة إلى الصينية على يسارى وتطلعت إلى عينيه المحترقتين وهو يقول : من الأفضل لك ألا تفكر بمصدر المعاناة والألم .. إن هذا الولد فى مثل عمرك فهل تريد أن تخجل من نفسك بأن تصرخ أو تشكو قبل أن يفعل

هو ذلك ؟

توقف عن الحديث ثم إخترقنى بنظراته فى إنتظار إجابتى فقلت : لا ..
أنا لا أصرخ أو أبكى .

شعرت بالخوف ولم يتوقف قلبى عن الخفقان وظللت فى إنتظار ماهو
أسوأ إذ لم تكن لدى أية فكرة عما سيقومون به لكننى كنت أعرف أنه لا يجب
أن أبكى مهما كان الألم وعندئذ تذكرت شيئاً .. أه .. لقد بكيت عندما ماتت
(فولاساد) .

قال الآب : كانت تلك الطفلة^(١) * abamigidi* ولقد أخبرت (أيو) فى حينها
وعلى أية حال فإن^(٢) * Ibanuje, Ko m'omode, Ko m'agba* .

وفجأة أوماً برأسه للرجل الغريب ثم شعرت بغتة أن قدمى مسمرتان فى
الأرض وأن كعب الحذاء مضغوط ثم تحركت يده بسرعة وضغط على كرة
قدمى إلى أسفل وأنا أوصل ضغط كعب الحذاء على الأرض بينما راح الولد
الصغير يمسح قدمى بخزقة مبللة ثم أمسك الرجل الكبير بالمشروط .. إشتد
الألم فى قدمى فصرخت مثبتاً أقدامى فوق الأرض بيدي اليسرى لكن جسدى
بدأ يترنح وأنا أوصل الصراخ غير أن زوجاً من الأيدي القوية كان يضغط
فوق كنفى .

رأيت كما يرى النائم نفس الشفرة المعدنية تتلأل داخل الطبق أو خارجه

* (١) طفلة غريبة وسحرية .. غريبة حقاً .

* (٢) إن الندم والموت لا يعرفان إذا ما كان الإنسان صغيراً أو كبيراً .

فإنتشر الألم فى جسدى كله .. نظرت إلى الجرح فكان الدم ينزف وأطلقت أول صرخة حادة لكن الدموع التى إستقرت فى عيني رفضت أن تتدفق .. ضغطت على أسناني حتى لا أصرخ مرة ثانية وضغط الأب بأصابعه فوق كتفى وكان جسدى يتقلص مع كل حز بالمشرط فى قدمى حتى لم أعد أستطيع النظر إلى أسفل فأغلقت عيني لاصقاً أسناني ببعضها فى إنتظار نهاية هذه المحنة .

... بدأت الدموع تتدفق رغماً عنى ...

ربطوا قدمى وكانت لفافة كبيرة فى الخليط الموضوع فى الطبق .. نزعوا قدمى من الأربطة ووضعوها فى ذلك الخليط .. كان الولد لطيفاً جداً .. تكرر نفس الشئ مع القدم الأخرى غير أننى لم أشعر بما شعرت به .

أصبح فكى طليقاً ولم أعد أقبض على أسناني وأعجبنى ذلك الإستخدام الدقيق للسكين .

لم أصدق أن الانتهاء من كل شئ قد تم فى وقت قصير .. أشرقت الشمس فى الخارج وكانت الظلال منتشرة عبر الباب .. كان الغريب يتحدث ببطء فى ركن الحجرة بينما يومئ له الأب بالموافقة ثم عاد الرجل الكبير يلم معداته وأدواته وكان الولد يغسل الطبق خارج الباب عندما كان الرجل ينظف الشفرة ويصب بقية البودرة فى أباريق صغيرة قام بوضعها فى حقيبة واسعة كنت قد رأيتها منذ قليل معلقة على الباب .

كان الأب يودعهم ثم أغلق الباب وجلس فوق الكرسي الخالى قائلاً : (وول)

.. لقد كنت قوياً والآن إستمع لى بانتباه شديد ...

تناول علبه النشوق وفتحها ثم إلتقط بعضاً منها بيده اليسرى وأعاد وضع الغطاء مستطرداً : تناول الطعام الذى يقدمونه لك ولا تخف .. دع الشكوك جانباً وتناول طعامك ولا تأت إلى هذا المنزل مرة ثانية .. هل تفهم ما أقول ؟
هززت رأسى دون أن أنطق بكلمة واحدة .

قال : عليك بمواجهة المعارك ولا تعطى ظهرك لها وحيث تجد نفسك لا تهرب من التصدى للمعارك .. إن خصمك غالباً ما يكون أكبر منك ولا بد أن يقهرك فى المرة الأولى وعند ملاقاته فى المرة الثانية لا بد أن تتصدى له غير أنه أيضاً سوف يقهرك لكننى أعدك بأنك ستقهره فى المرة الثالثة أو أنه سيلوذ بالفرار .. هل تسمعنى ؟

• نعم يا أبتى .

• لقد أرسلت والديك وبقية الأطفال إلى «ساجامو» لزيارة بعض الناس وإذن فنحن الآن بمفردنا .

تجولت بنظراتى فى الحجرة بحثاً عن أبى الذى كنت أعتقد فى وجوده بأحد أركان الحجرة فابتسم الأب وهز رأسه : أوه .. إن ماحدث بيننا نحن الإثنين فقط والآن يجب أن أمضى لأن إجتماعاً ما فى إنتظارى وثمة شخص سوف يحضر لك الإفطار .. لا تأكل أى شئ آخر اليوم وغداً فيما عدا ما أرسله لك .. هل تفهم ؟

قلت له مؤكداً بأننى سأفعل ما قاله ثم شعرت بالإرهاق وازدحمت رأسى
بالأفكار .

أحسست أن يدي منفصلة عن جسدى وسمعت نفسى أتساءل : هل ما
فعلوه بقدمى قد حدث مع بابا عندما كان صغيراً مثلى ؟

رفع الأب عينيه إلى العارضة الخشبية قائلاً : لقد أخبرونى بذلك .. أهـ ..
إنهم على صواب .. لقد حذرنى (أيو) وكذلك (إينيولا) بأنك سوف تقتلنى
بالأسئلة .

ذهب الأب إلى حجرته واستطعت أن أسمع ضحكاته المكتومة مخلفاً وراءه
صرخاته وأوامره .

كنت جالساً ما أزال .. حاولت أن أمس قدمى .. هل ستتحمل وزنى أم
أننى سأقع إذا وقفت ؟ يبدو أن حيرتى قد إنتقلت إليه فى حجرته حين
سمعته : حاول أن تمشى على الحرف الخارجى للقدم ثم على الحرف
الداخلى وإذا فشلت عليك أن تمشى بالطريقة العادية بدون أن تضغط على
قدم دون أخرى ولكن برقة وهدوء .

كنت متأكداً فى إعتقاد الأب أننى لا أفهم فوقفت على قدمى ورحت
أضحك بسخرية .

- لم يكن رنين ساعة الكنيسة أو أصوات فرقة البوليس أو مدخرات السوق هي وحدها ما نسمع وإنما أيضاً كانت أجراس الفرق الإلكترونية التي يحملونها ويساومون بها في بيع البضائع المستوردة .. إمتلاً الطريق الذي يتوسط سور فنائنا الخلفى وسور الكنيسة ببضائع الباعة الجائلين .. شالات وأمشاط ومرايا ، إيريال للراديو ، رغاوى بألوان مختلفة وقطع غيار من المطاط ، قوارير وأكواب للشراب وأخرى لوضع الزهور ، مفارش شرقية للموائد مصنوعة في مانشستر ، ساعات ومجوهرات ، براوز للصور وأخرى لصور راكيل وولش ومارلين مونرو وديانا دورس وچين راسل وجريتاجاربو وبعض صور نجوم العالم من الرجال بشواربهم الفضة.

كانت "أكية" مليئة بالأصوات والتحركات الغربية منذ الفجر وحتى الغسق ثم تلك الأحاديث والروايات المختلفة التي كنا نسمعها ونحن فوق حصائرنا فتزيد من حيرتنا ونحن نقاوم النوم والبق والصراصير والحشرات ذات الأجنحة الشقافة القادمة من كنيسة القديس بطرس .

- عند زيارة العمدة (ليچادو) أو القيام بنزهة في الليل كنت أغنى طوال الطريق خوفاً من أخطار الظلام والعمارة والقفار وأرواح اللصوص وذات يوم سمعت من يغنى بأعلى صوته :

« أنا الساحر

يجب أن تعرفوا جميعاً

فسوف تسمعون عنى وإنما ذهبتم
يمكنكم رؤية إسمى بحروف كبيرة
وتستطيعون رؤيتى وأنا ألتهم دجاجة كبيرة
أنتونى بيتر زخارى الأبيض
الرجل الذى يهب السرور دائماً
أصدقائى .. تعالوا وشاهدوا
أى نوع من السحرة أكون
تعالوا جميعاً .. مرة واحدة
والتحقوا بالجمع

إرفعوا أصواتكم بالشكر والثناء»

لماذا الدجاج ؟ .. كان سؤالاً يبعث على الحيرة فلم تكن قوة الساحر غريبة
لكنها غامضة وكان أولئك السحرة الذين تلقوا تدريباً فى الهند يقومون
بأعمالهم دائماً فى الصالة المنوية حيث يحرقون البخور ويتمتمون بمئات من
التعاويذ والكلمات الغامضة ويرشون المياه الروحية .

أصبحت الأغانى هى حارسى الدائم وأنا أعبر الطريق بين سور فنائنا
الخلفى وفناء الكنيسة كما كنا نغنى النشيد الوطنى مع الكورس فى المواسم

مما ساعد فى تقوية صوتى فكانت النغمات تخرج من حنجرتى واضحة لكن الكلمات كانت تبدو وكأنها لغة غريبة هى خليط من الإنجليزية ولغة اليوروبا كتلك التى يتحدث بها طفل جميل من خلال زجاج النافذة .

كنا أحياناً نشاهد السيد (أوريچا) عازف الأرغن وهو قادم من بوابة الكنيسة الخلفية .. اتجهت ناحيته ذات يوم وأنا أنشد بعضاً من الشعر الوجدانى الغامض

كان رجلاً متهدلاً يبدو كالشبح ودائماً ينظر حواليه وهو يمشى بخطى واسعة نحو الكنيسة كى يلحق بالصلاة .. توقفت وقلت له بفرع : مساء الخير ياسيدى.

تمنيت ألا يكون فى غنائى ما يمس الدين حتى لا يخبر إسحق فى اليوم التالى لكنه جاء لزيارتنا ومعه ديك كى يسأل إسحق أن ألتحق بالكورس وليس لإخباره بأية مخالفة كما تصورت .

تناقش مع إسحق طويلاً وكان ثمة إحساس غريب قد تملكنى منذ اللحظة الأولى التى رأيته فيها وهو يقترب من الباب الأمامى .

قال إسحق : إنه ما يزال صغيراً .

لكن السيد (أوريچا) كان مصراً على أن صوتى صالح للسويرانو وأخيراً تمت الموافقة .

كان (أودون) يقيم فى الجانب الآخر من سوق "إيبارابا" وقد تم إختياره

معى للكورس وكم سعدنا بذلك الإختيار لأنها فرصة أخرى للتحرر من قيود أهل البيت إلى جانب الدروس والكشافة وبعض القصص الخيالية .. إصبح لدينا ما يبرر خروجنا فكان يكفى أن نقول : نحن ذاهبون إلى تدريبات الكورس .. لكننى بالرغم من أننى أعيش بالقرب من الكنيسة حيث التدريبات إلا أننى كنت أعبر الطريق بين ميدان "أكية" وسوق "إيبارابا" متجولاً خلال السوق حتى أصل إلى (أودون) لأعود معه فى نفس الطريق قاصداً الكنيسة للتدريبات .

لم يكن سوق الصباح يثير إهتمامى فقررت تغيير طريقى إلى سوق المساء فى الجانب الآخر من الطريق المؤدى إلى "إيبيريكودو" وكان هذا يعنى أن مسافة السير ستزيد عشر دقائق أو خمس عشرة دقيقة فرحت أخرج قبل موعدى حتى أصل فى نفس الموعد .. كانت رائحة الورود فى السوق تنعش الأنوف فى المساء وكأنها تشير إلينا أن ننفق نصف ما نجحنا فى توفيره طوال الأسبوع .

وقفنا فى السوق ذات مرة نتأمل الأصابع الرقيقة للمرأة العجوز وهى تغرف عجينة الفول البيضاء من الطبق بكميات متساوية وتلقى بها فى الزيت المغلى حيث تغوص فى الزيت وتترنح فوق السطح ثم تتحول إلى اللون القرنفلى وتصبح كالفقاعة .. كانت قشرة العجينة من الخارج يابسة ذات لون يميل إلى الأسمر وكانت عجينة الفول من الداخل مختلطة بالخضروات والفلفل الأحمر لكن النقود لم تكن كافية لإشباع كل الرغبات التى كنا نتغلب عليها بالرؤية والشم .

أصبح تدريب الكورس سبباً أساسياً للنزهة عبر "إبيارابا" والتمتع بروائح المساء الفاخرة وما هي إلا شهور قليلة حتى أصبحنا من المرتلين الجيدين فلم نعد تحت التمرين لكننى ظللت أغادر المنزل مبكراً فى أيام الأحاد وأعياد الكنيسة الأخرى لإستدعاء (أودون) لتراتيل الصباح والمساء

لم يكن سوق الصباح يعمل فى أيام الأحاد لكن إمراة كانت تأتى وتصنع الطعام من جراد البحر والفول والأرز ومختلف أنواع البطاطا .. كانت تقف وحيدة تواصل عملها لكن إفطار المنزل كان كافياً فلم تستطع أن تثير شهيتنا .. كنت أضع الرداء الكهنوتى الأبيض فوق كتفى وأسارع باحضار (أودون) مناشداً الله أن أصل بأقصى سرعة إلى "إبيارابا" كى ننفق كل النقود التى أعطوها لنا فى الكبدة التى تصنعها المرأة العجوز إلى أن تدق أجراس الكنيسة مشيرة إلى بدء الصلاة وملاقة الرب .. كنا نغنى ونرتل الأناشيد بطريقة أفضل بعد قضاء وقت طيب عند المرأة العجوز .. كانوا يتضايقون لتبديد تلك النقود فى يوم الاحد لكن أحداً لم يعاقبنا .

- كان الباعة المتجولون ينادون بالغناء على بضاعتهم وأيضاً كانت المحلات المضاعة بمصابيح النيون الخضراء إلى جوار محلات «ماكدونالدهامبورجر» و«كنتاكي فرايد تشيكن» ومحلات السجق ذات الشكل الهندسى المنتظم مثل شرائح الصابون والذى كان الأغنياء يضيفون إليه البيض والأسماك المعلبة القادمة من البرتغال والبلوييف القادم من الأرجنتين .. كانت آله لصنع الفشار المنتفخ كالتفخذ بجانب تلك المحلات المضاعة وكان الفشار وملفوفاً فى أكياس نظيفة من البلاستيك معلقة فى مواجهة العابرين

الذين يتوقفون للشراء بعيون جاحظة وأسنان متحركة .. كانت أذرعهم تتسابق فى الشراء ملوحين بها إلى أعلى وأسفل مثل الدجاجة وكانت أصوات الراديو والكاسيت تدرى من تلك المحلات المتلائة.

كانوا يتوجهون إلى بوتيكات الزينة لشراء الدهانات الخاصة بتحسين الوجه أو الشعر فى حالة من الإنبهار بكل ما هو جديد ويتوقفون عند «ماك دونالد» لإلتهاام السجق ثم يشربون الكوكاكولا .

كان الزحام والضوضاء والتنافس فى الشراء أو المشاهدة فهكذا تبدو الأشياء فى بداياتها لكنها للأسف كانت تقليعة أجنبية .

كان أبناء الأطباء والمحامين والمهندسين والبيروقراطيين يمرون عبر «داييزى» يتطلعون إلى القبعات ويتجمعون عند «كنتاكي فرايد تشيكن» أما البنات فكن يتوقفن عند الكوافير حيث موسيقى الديسكو ورائحة المشط الساخن الذى يتخلل شعر الزبونة الشابة دون أن يحرقه .

كان التجول فى «داييزى» يتسم أحياناً بالقلق حين يصبح ميدان "أكية" مليئاً بالروائح فى موسم المانجوفتنتشر أسراب النحل والفراشات وفى أحد المواسم كانت شجرة المانجو خصبة تكسوها الظلال فكان بانعوا الطماطم يقفون تحتها بسرور وكان عمال وموظفوا الحكومة وأولاد المدرسة والمسافرون فى اللورى يحيطون الشجرة من كل الجوانب يقدمون الطعام وأحياناً الملابس إلى (سوروانك) التى كانت تثير الإنتباه .

كانت (سوروانك) تعيش بالقرب من شجرة المانجو فى كوخ من الكرتون

المقوى ولم يكن حبيبها (يوكولو) يملك مسكناً ثابتاً .. كان يتسكع فى طول وعرض «أبيوكوتا» وكم كان يسيراً أن تلقاه فى كل الأوقات بأى ركن من المدينة وحدث أن رأيناه ذات يوم يشارك (سوروانك) الطعام .. كان يأتى إليها كثيراً وعرقنا من تلك الخرق البالية التى كانت تنتشرها خارج الكوخ بعد غسلها أهمية الرجل بالنسبة لها .. أصبح (يوكولو) يقضى معظم الوقت حول شجرة المانجو بعد أن توقف قليلاً عن جولاته فى المدينة ولم يتوقف عن مشاركة (سوروانك) الطعام .

ظل الناس منتشرون حول شجرة المانجو يتحدثون بشأن تلك العلاقة الغربية بين (سوروانك) و(يوكولو) وأصبح التلاميذ يعودون كل يوم بأخبار جديدة عن تطور العلاقة الغرامية بين هذين المنبوذين وكنا نسمع عنهما الكثير من بائعى الطعام وزبائنهم .

رغم ظلال شجرة المانجو الكثيفة فقد تحرك بائعو الطعام بعيداً نحو الكنيسة وتركت (سوروانك) وحبيبها المكانالى موقع جديد عند الشجرة وكان من السهل مشاهدتهما عند الظهيرة مستلقيان بظهرهما على الشجرة .. كانا يستخدمان خشب الشجرة فى التدفئة وأحياناً فى طهى الطعام .. كان طعامهما لا يقل حلاوة عن لحم الخنزير المشوى والبطاطا والليكى وكل الأشياء الطبية الأخرى التى كان بائعو الطعام يعملون بها .

لم تعد (سوروانك) تتكلم كثيراً وبدأت بطنها تكبر شيئاً فشيئاً .. لم تعد تثرثر عن العالم والكون ورحلات (يوكولو) الغامضة حول العالم وإنما صارت

تتمتع وتتلو التعاويذ التي لا يستطيع أحد أن يفهمها وعند إختفاء رفيقها
إنطوت على نفسها وكانت تنظر إلى الأرض دائماً وهي تتمتع .. يبدو أنها
كانت تتحدث إلى الإنتفاخ في بطنها .

ذات صباح سمعنا فجأة بعض الصيحات والصرخات .. تسلقت السلم مع
الأخرين فرأينا بعض زملائنا في المدرسة يرجمون (سوروانك) بالحجارة
والعصى ولم يوقفهم إلا مرور الباعة المتجولين وبعض الرجال الذاهبين لأعمالهم
وكانت قبل ذلك بأيام قليلة قد عادت إلى الكوخ بعد غياب غير عادي لم يدم
طويلاً فوجدته محترقاً بالنيران وكانت أشياءها مبعثرة في أماكن متفرقة
بعيداً عن الشجرة .. أصبحت تجلس في وضع واحد لا يتغير ونادراً ما كانت
تأكل فلم تكن تملك طعاماً أو نقوداً .

كانت تتجنب الأحجار والهرارات بيديها لكنها سقطت فجأة فوق جزع
الشجرة وهي تترنح فسارع الأولاد ببعثرة ما يحتويه موقد النيران من خرق
بالية وورق مقوى .

كان الباعة يواصلون أعمالهم وما هو إلا إسبوع واحد حتى إختفت تماماً
من ذاكرة الناس في «أكية» صورة تلك المرأة المجنونة .. المرأة الحامل ..
(سوروانك).

- أصبح إسحق يقغى كثيراً من الوقت فى حجرته وعرفت أن طعامه أصبح قليلاً ولما كنا نراه خارجاً من حجرته كان ينظر إلينا بقوة لم نتعودها من قبل وهو يهز رأسه بحزن .. كان يبدو طبيعياً ولاشئ قد تغير فى مظهره وكان الزائرون كالعادة يترددون على المنزل فى أوقات مختلفة من النهار والليل لكنهم كانوا أقل عدداً وأحياناً كانوا يعودون دون رؤية إسحق وهم يقولون : إن الناظر نائم الآن .. يجب أن نتركه ليستريح !!

أصبحت المسيحية المتوحشة على غير العادة تقضى وقتاً أطول فى البيت تاركة شئون الدكان للخادمة أو أولاد العم وكانت تمضى الوقت فى الدخول والخروج من الحجرة تقدم لإسحق الطعام أو انشأى وكانا يتبادلان الحديث بصوت منخفض ولم يكن وقتها كافياً لمعاقبتنا على ما نسيبه من مضايقات قليلة .. كانا مشغولين بما هو أهم .

ظلت مضايقاتنا تقل تدريجياً حتى لم يعد ثمة شئ يمكن أن يعاقبونا عليه .. تلاشت رغبتنا فى الخروج أو التسكع فى نزوات قصيرة ومشاركة زملائنا اللعب وبعد الإنتهاء من المدرسة كنت أسارع إلى المنزل لأن شعوراً غامضاً كان يجتاحنى بأن أكون مع العائلة لأشاركهم المودة واللمسات الهادئة والنظرات الجميلة والأحاسيس البسيطة الرائعة .

دخلت ذات يوم حجرة إسحق فشاهدت الزهور وتحديقه الدائم فى الأشياء وعندئذ إستطعت أن أفهم .. كانت نظراته تصل إلى أبعد من جدران الحجرة

وكم كانت دهشتى عظيمة حين رأيتَه يهز رأسه فى ضيق ويحدث نفسه برقة
قائلاً: «أوه ياعزيزى .. ياله من موت يثير الشفقة» .

سمعتَه كثيراً وهو يردد نفس الكلمات فلم يعد يساورنى شك فيما سمعت
وكانت إبتسامة غريبة ممتزجة بالأسف والضيق والترقب ترتسم فوق وجهه
الهادئ الذى كانت ملامحه توحى بشئٍ ما غامض لم أستطع التعرف عليه
لكننى أدركت عن يقين أن الأبتسامة لا تعنى بالضرورة الفرح والسرور .

كان يترنح أحياناً برأسه ويميل بها ناحية اليسار ثم ناحية اليمين وهو
يبتسم فى رفق غير أن عينيه كانتا غارقتين فى التساؤلات والدهشة
والغموض .

«نعم .. ياله من موت يثير الشفقة»

إستدعانى ذات مرة إلى حجرته وكان جالساً فوق السرير حين طلب منى
أن أجلس فى مقعده بجوار الشباك وكانت المرة الأولى التى أراه فيها يبتسم
كثيراً وبإصرار .

بادرنى بقوله : لا تدع شيئاً يقهرك فأنت رجل هذه العائلة فإذا لم تكن
قوياً فما بالك ب(تينى) والآخرين .. إن تفكيرك يجب أن ينحصر فى التعليم
..ولا تهمل تعليمك .

تحيرت وأحسست بالتعب ولم أستطع أن أفهم شيئاً لكننى أومأت برأسى
قائلاً : نعم .

قال : أنت الآن فى مدرسة القواعد وعلبك بالإستمرار حتى تجتاز كلية الحكومة لتحصل على منحة دراسية .. إن كليات الحكومة لديها الكثير من المنح الدراسية لمن يستحقها وهذا ما يجب أن تكافح من أجله ولتكن أحد أهم أهدافك أن تجد مكاناً فى كلية الحكومة .. هل تسمعنى ؟ .. إن الحكومة تساند التلاميذ ودائماً لابد أن تفكر بذلك .

قلت له : أعدك بذلك .

كان ما قاله هو ما يطمح فيه وفجأةً غمرنى إحساس مفاجئٍ وحاد بأن إنتقالاً هاماً فى حياتى لابد سيحدث بعد ذلك الوعد الذى ألزمت نفسى به وكان من العسير أن يقف أى شئ حائلاً بينى وبين الوفاء بذلك الوعد الذى تم بين إثنين فى ظروف غير عادية لكننى حتى تلك اللحظة لم أكن قد فكرت فى خطة بعينها .

هز رأسه وكأئن عرف ما دار بذهنى وأصبح مسروراً ثم إستطرد : إن الأشياء لا تحدث دائماً كما تخطط لها فى الحياة كثير من خيبات الأمل ودائماً ما تفاجئك أشياء غير متوقعة .. هكذا هى الحياة ونحن لسنا آلهة .. هل تفهمنى ؟ .. إن الواحد منا لا يستطيع معرفة ما سوف يحدث فى الغد وهكذا لا يجب أن نفعل شيئاً سوى التصميم والإرادة .. الإرادة الخالصة وكذا الإيمان بالله فلا تهمل صلواتك خاصة وأنتك رجل العائلة وأن الآخرين سيتطلعون إليك .. سوف تكون مسئولاً تجاه نفسك وتجاه الآخرين فلا ينبغي أن تخيب ظنونهم .

هن رأسه مؤكداً : أبدأ .. أبدأ .. لا تخيب ظنونهم !!

أصابتني الحمى ذلك المساء وطوال الليلة واليوم التالي كان جسدى ساخنًا ونم أكرز خلال الهذيان أرى شيئاً سوى وجه أبى وأسى بالقرب من السرير وعندما شفيت فى اليوم الثالث سمعت المسيحية المتوحشة تقول : ماذا حدث ؟ .. هل كانت الحمى سبباً لنا دار بينك وبين أبيك من حديث ؟

كنت أعرف أن ما قالته هو انصواب فلقد أنقذ حديثه رأسى لكننى قلت : لا شئ .. لا شئ .

وفشلت أن أعرف كيفية أن يودى أحد الأشياء ببساطة إلى شئ آخر !!-- بسبب مرضى تأخر التقاط الصور وبعد شفائى جاء المصور وبدأ بهدوء فى عمله .. إرتدى إسحق أجمل ثيابه وتم تصويره بمفرده مع شجيرات الحديقة والزهور والأغصان الجميلة ثم مع المسيحية المتوحشة وبعد ذلك مع كل منا على حده وأخيراً جمعتنا صورة واحدة .

عاد إسحق إلى حجرته وقد تغيرت ملامحه وتم تصويره بين جدران الحجرة وهو جالس مرة وواقف مرة أخرى دون أن تفارقه إبتسامته العريضة ثم طلب من المصور الإسراع من الإنتهاء من الصور الليلة .
تعجب المصور واعترض قائلاً : لا أستطيع إلا غداً مساءً .

عدت إلى السرير متعباً فثمة أثار خفيفة كانت متبقية من الحمى راحت تزول تدريجياً وبدأت أنظر شيئاً فشيئاً عودة الروتين القديم .. الصوضاء ،

الإبتهاج والسرور ، النكات والمرح ، زيارات الحجره الأمامية وغياب المسيحية المتوحشة الدائم من المنزل وبقائها فى الدكان .

أصبح المنزل طبيعياً وعادت الأشياء إلى ما كانت عليه ففكرت أن كل ما حدث كان فقط من تأثير هذيان الحمى .

كنت أراقب إسحق فأبصرته متحيراً بشدة .. كان متعجلاً الحصول على الصور وهامى الآن معلقة فوق الحائط فى إطارات من الخشب .

عدت بذاكرتى إلى الخلف قليلاً فعرفت أن ثمة شئ قد تأجل وأحسست بأننى أقدم الشكر والإمتنان للقوى غير المرئية .

- كانت مدرسة «أبيوكوتا» الثانوية عالماً جديداً لم أتعوده من قبل .. كانوا كباراً وكان من الصعب التفرقة بينهم وبين المدرسين إلا بالقمصان الزرقاء والزى الكاكي .. أوه .. كان الأب على حق .. إنهم يبسون كالرجال بل إن بعضهم كذلك فعلاً .

كانت كتبى الجديدة جميلة وشيقة وكذا الكراسيات والأقلام الرصاص ونشافة الحبر وبعض الأدوات الأخرى لكننى فقدت نصف هذه الأشياء فى الأسبوع الأول وكانت الآله الحاسبة المتلاثة هى أفدح الخسائر وأيضاً كان الفرجار والمربع والمثلث ونصف الدائرة الشفافة ذات العلامات الغريبة .. أه .. إن عقاب الخسارة سيكون مؤلماً .

سرق الولد الكبير الحقيقية بعد أن تجاهلت كل النصائح ولم أحفر إسمى على الحقيقة المعدنية المسطحة .. كانوا جميعاً يعرفون أن الولد الكبير هو الذى سرق الحقيقة وكذلك كان هو يعرف بأننا نعرف .

لاحظت أفعالاً وتصرفات غريبة فى ذلك العالم الجديد .. كان وسطاً مليئاً بالحكايات ولم يكن معقولاً أن يسرقوا أدوات الهندسية هكذا أمامى وأثناء الدرس .

رحت بالغريزة وحب الإستطلاع أدرس زملائى الجدد عن قرب .. إبتكرت طرقاً مختلفة للحياة بينهما وكنت أتطلع بشغف لزيارتى القادمة إلى «إيسارا» لمقابلة الرجل العجوز العالم بالأمور وشعرت بوجود معرفة زملاء مدرسة

«أبيوكوتا» القادمون من منازلهم من أجل العلم والمعرفة .

قبل إنتهاء العام لم أكن فى حاجة إلى ملاحظات المسيحية المتوحشة كى أعرف بأننى كنت أجنح كثيراً إلى أحلام اليقظة .

- عند إلتحاقى بالمدرسة كان (داودو) مسافراً فى بلاد الإنجليز كمسئول تربوى عن غرب أفريقيا فتولى السيد (كوفوريجى) مدرس الرياضيات إدارة المدرسة .. كان معروفاً باسم (وى . .وى) ولم يكن هذا الإسم يعنى شيئاً بالنسبة لنا حتى أصبح مديراً للمدرسة وراح يتجول بحلته الأنيقة فى أرجاء المدرسة .. كان نو صوت رفيع يحرق بعينه هنا وهناك وكانت قامته كالذجاجة التى تلتقط المحصول حين يظهر فجأة فى الفصول لمتابعة الدرس والعصا دائماً فى يده .

كان (وى . .وى) نشيطاً يحب النظام ولا يكف عن المتابعة .

- مدرسة (أبيوكوتا) الثانوية ، عبر النوم الكبير ، المخابئ ، الطرقات ، الأشجار الكبيرة والصغير حول الملاعب وتلك السياج الكئيبة التى تفصلنا عن العالم الخارجى .. كانت الرغبة فى تحطيم تلك السياج جامحة وكذلك الرغبة فى الهرب تنتابنى أثناء فترات ممارسة الرياضة وفترات الراحة فقط لكنها لم تكن تتولد فى الفصول أو فى صالة الإجتماعات أو فى مكتب مدير المدرسة .

كان المشرف يواصل جولاته الليلية فتصيبه الحيرة أحياناً حين لا يجد الطلبة أو يبصر سريراً خالياً من صاحبه .

كان الولد الكبير الذي سرق حقيبة أبيه .. كان أبوه ثائراً حين جاء إلى المدرسة متوجهاً إلى مكتب المدير وما أن عرف الولد بوجود أبيه حتى حزم حقيبته وهرب دون أن يعود مرة أخرى ولقد سمعنا فيما بعد أنه لم يعد إلى المنزل .. ذهب إلى «لاجوس» والتحق هناك بأحد الوظائف وكان من وقت لآخر يأتى إلى المدرسة القديمة مرتدياً أحدث الأزياء وأفخم الملابس مقدماً لزملائه العون.. جاء فى يوم ما إلى المدرسة ليقول وداعاً لأن والده سيرسله للدراسة فى إنجلترا .

- كانت الفضيحة الكبرى تتمثل فى الفتاة الحامل وكان شيئاً عادياً أن يتسبب (أ . كينزى) فيما حدث للفتاة لكنها المرة الأولى التى يصمم فيها والد الفتاة على طرد الجانى من المدرسة .. إهتمت الإدارة بالأمر وتناقشت مع والد (أ . كينزى) الذى كان من عائلة هامة فى «إبيوكوتا» .. كان (أ . كينزى) محبوباً من الجميع ومتأنقاً حتى فى زى المدرسة وكان يمشى بخيلاء مما جعل الأولاد الأصغر سناً يقلدونه بطريقة لطيفة .. كان يختال فى سيره فوق الرصيف وكأنه يعلن عن إسمه أو يعلن عن وصوله لكن السيد (كوفوريچ) كان يجد صعوبة فى طرد أى طالب وخاصة إذا كان فى عامه النهائى وكان يرى أن يصبح العقاب شديداً من أجل العبرة .

كان العقاب شديداً فى مدرسة «أبيوكوتا» .. ستة وثلاثون ضربة .

إصطف الحاضرون فى الصف الأمامى من القاعة العمومية وصعد السيد (كوفوريجى) المنصة معلناً عن سبب الإجتماع ثم عبر عن الصدمة التى أصابت المدرسة كلها من جراء تلك الفضيحة وما أصاب عائلة الفتاة من تعاسة .. أعلن عن إسم الجانى وأمره بالوقوف والمجئ إلى المنصة ثم إتجه ناحيته وأخبره أن يختار بين طرده من المدرسة وتلطيح إسمه للأبد أو ضربه ستة وثلاثين ضربة بالعصا أمام الخاضرين .. إختار الرجل الصغير الضرب فأصدروا إليه الأمر بالإنحناء حتى يلمس أصابع قدمه وكان أحد المدرسين يعد انضربات بينما (وى .. وى) بدأ فى تغيير العصا عند نهاية الأثنى عشرة ضربة الأولى لون أن تتحرك عضلة واحدة من (كينزى) وكان (وى .. وى) أثناء ضربه الأثنى عشرة ضربة الثانية يمسح العرق المتصبب فوق وجهه وبدأت ضرباته تفقد قوتها عند بداية الضربة الرابعة والعشرين فشعرت أن (كينزى) سيدخل التاريخ .. كانت كل الأنظار متجهة إلى جسد (كينزى) ولم يستطع أحد أن يصدق أنه تحمل أربعة وعشرين ضربة فوق ظهره وأردافه بدون أن يغير ولو مرة واحدة من وضعه أو بدون أى رعشة فى عضلاته .

تعجبت وقلت لنفسى : ربما يحشو جسده بشمء ما .. لابد أنه يضع شيئاً تحت ملابسه .

سارع (وى .. وى) برفع ظهره وشد بنطالونه للتأكد من عدم وجود أى شئ ثم واصل ضرباته الأخيرة بكل قوته وكان العرق يتدفق منه بغزارة حين نهض (كينزى) بهدوء وهو ينحنى برشاقة مرتلاً بعض الأناشيد الدينية .

قال (كينزى) : شكراً سيدي .

فدوت القاعة بالتصفيق والتهليل .. دق المدير بيده فوق المكتب دقات قوية وأمر بالهدوء بينما خطف مساعده الجرس وظل يلوح به بقوة فأضاف صوتاً جديداً إلى أصوات التصفيق والإبتهاج .. كانت الأصوات تتصاعد شيئاً فشيئاً فى موجات متلاحقة وحين ساد الهدوء حدّق (وى .. وى) فى الجميع وتمتم قائلاً⁽¹⁾ * Eyin omo Satani .. إن الخجل لا يُصلح البلهاء .. إنه⁽²⁾ * Awon omo alaileko ! .. إخرج من هنا

إنصرف الجميع وتفرقوا .

- عاد (وى .. وى) مدرساً للرياضيات بعد عودة (داودو) من مهمته فى إنجلترا .. إستقبله الناس فى «أبيوكوتا» بالترحاب .. كان يمتطى حصاناً أبيض فى «أكية» فى طريقه لكنيسة القديس بطرس وكان نافخوا البوق يحيطون به وكذلك حاملوا الطبول وصفوف من الكشافة مما يوضح أهميته غير العادية بعد أن أصبحت أعماله ومآثره فى إنجلترا معروفة على نطاق واسع .. كانوا يتحدثون عن كفاحه ضد الخطط البريطانية التى طالبت بإنشاء جامعة واحدة فقط لمستعمرات غرب أفريقيا وكيف أنه أصر على إنشاء جامعة فى كل مقاطعة .

- لم يهتم (داودو) بغواصات هتلر التى لم تفرق بين السفن الحربية

* (1) أبناء شياطين .

* (2) نقص فى التربية .

وغيرها من السفن وعاش بعد قنابل هتلر الشيطانية وعبر البحر مرتين برغم الأخطار .. كان يمتطى الحصان فى «أكية» وكان وجوده يبعث على الرهبة حتى لضابطالمقاطعة وعند مروره فى أى مكان كان الرجال ينبطحون وكانت النساء تركع ويبداون جميعاً غناء النشيد الوطنى بمساعدة مدرس الموسيقى .
دائماً ما كنت أغنى ذلك النشيد فى المنزل .

كان (داودو) بارعاً فى إشرافه على إقامة النشيد الوطنى فى المدرسة .. كان يبذل مجهوداً كبيراً فى المعالجة الموسيقية حتى يتصبب العرق من تحت إبطه على شكل دائرة تأخذ فى النمو إلى أن تصل صدره .. كان بسهولة يلتقط بأذنيه أى صوت خطأ ويعرف الصف المخطئ أو الفصل المتسبب فى الخطأ فيعاقبهم بضرب العصا .

بعد ظهر أحد الأيام كنت أعبت بالبيانو فسألنى (داودو) : لماذا لا تتعلم العزف على البيانو جيداً ؟

كنت خائفاً من عصاه حين كذبت عليه قائلاً : إن أبى قد بدأ فى تعليمى .

- كانت مجموعة من النساء تتجمع عند السيدة "كوتى" وكن يناقشن مشاكلهن وما يتعرضن له فى المنازل وكانت المسيحية المتوحشة واحدة من أعضاء تلك المجموعة .. كنت أنتظرها بعد المدرسة لأعود معها وكن يتجاهلن وجودى وهن يتحدثن ويشربن الشاي .. كن زوجات لرجال الأعمال والمدرسين والصيادلة والقساوسة وجميعاً كن مسيحيات يتحاورن أحياناً حول أسعار السلع والبضائع والنقص الناتج فيها وكانت مسئوليات الخدم تشغل مساحة

كبيرة فى أحاديثهن وكثيراً ما كن يكررن : إن الخدم لا يعرفون ما يفعلون ولا يفهمون وضعهم فى المجتمع وبعض منهم لا يحسن ترتيب الأشياء أو رعاية الأطفال .

كان (داودو) يتجول ذات يوم بالقرب من تلك المجموعة حين توقف مقاطعاً : أنتن معشر النساء لديكن أهداف سامية ولكن لا يبدو أنكن تعرفن كيفية القيام بها .. إنكن نجتمن لبعض الوقت ولا أرى سوى ⁽¹⁾ * oníkaba لكن من يحتاج للمساعدة منكن حقاً هم ⁽²⁾ * aróso وأنا لا أرى أحداً منهم .. يجب أن تنسوا مشاكل المجتمع الراقى وتفكروا بالaróso .. إدعوهم للمشاركة فهم فقط الذين يحتاجون المساعدة .

قال (داودو) ذلك ثم راح يواصل جولاته .

تطنعت السيدة ذات الشعر الأبيض نحوهن بوقار وقالت : إن (داودو) لم يقل غير الحقيقة وعلى كل واحدة منا أن تحضر معها فى المرة القادمة واحدة على الأقل من الفقيرات .

* (1) النساء اللاتى يرتدين الفساتين الراقية .

* (2) الناس الذين يرتدون اللغائف والأغطية الفقيرة .

- إنضم كثير من النساء إلى إجتماع المجموعة وأصطحبت المسيحية المتوحشة صديقتها ماما (أدوني) فلم تعد صالة طعام السيدة (كوتى) كافية لإستقبالهن فإنتقلن إلى الفناء .

كانت رؤية الفناء يسيرة من نوافذ الشرفة الفسيحة حيث إستطعت التعرف على النسوة اللاتي إحتشدين فى الإجتماع كأسراب القطيع .. كنت أتطلع من النافذة ممعناً النظر لما تذكرت «إيسارا» والباعة المتجولين والسيدة التى كانت ترافقنا وتضع البضائع تحت تصرفنا .. كانت الخلافات دائماً تنشب بين (بيير) زوجة (كوتى) و(ماجبور) ذات الشعر الأبيض والمسيحية المتوحشة وأحياناً كانت إحدى النساء تغنى فجأة أو تبدأ فى سرد قصة بذيئة ، وكان بعضهن يصل مبكراً لإعداد الطعام .

كان بمقدور (داودو) أن يستمع إلى ما يحدث فى الإجتماع من خلال حجرة نومه ومكتبه لكنه لم يكن يتحرك نحو الفناء إلا عندما يرى ضرورة للتدخل .

قال ذات يوم : هل تعرفنى متاعب الفقراء الحقيقية ؟ .. إنهم غير متعلمين ولا يعرفون القراءة والكتابة ولهذا يستغلهم الناس ومن هنا يجب أن نبدأ .. فلنبدأ بالنساء الفقيرات .. نصف ساعة فقط من وقت الإجتماع ، نصف ساعة من كل إجتماع تكفى لأن تصبح كل نساء «إيجبالاند» متعلمات قبل نهاية العام .. هكذا أرى فالجهل شئ بشع .

إبتسم ومضى يواصل تجواله .

سيطرت الفكرة على النساء المجتمعات وسرعان ما بدأن في التطبيق ..
أحضرن الألواح والأقلام الرصاص والكتب والكراسات .

كنا نرى من أعلى النافذة ظهوراً تنحنى فى تركيز شديد ورعوساً ذات
أغطية مختلفة يحشوها الشعر الأبيض .

كن جميعاً يعملن فى هدوء مع بعض الضحكات المفاجئة الناتجة عن مزاح
المسيحية المتوحشة التى كانت تمد ذراعها وتشير إلى لوح الكتابة معلنة
بصوت مرتفع : هكذا .. إنظرن .. أكتبن هكذا .. لا .. لا .. يجب أن يكون القلم
مستقيماً .. والآن فلترسمن شيئاً كالطريق المنحنى .. لا .. لا .. ليس كذلك ..
ألا تعرفن كيف تكون بطن المرأة الحامل .. هكذا " b " .. البطن المنتفخة
أسفل الخط المستقيم .

كانت ماما (أدوى) أو السيدة ذات الشعر الأبيض تشد المسيحية
المتوحشة بعيداً فلم تكن تعجبهن تلك الطريقة فى الدرس وعندئذ كان الفناء
يمتلئ بالضحك .

كانت إحداهن تقول : أوه .. أنت يا زوجة المدرس بارعة فى إفساد
التلميذات .

- كانت التلميذات حاذقات وكثيرات منهن كن فى عمر الشباب يأتين سيراً
على الأقدام من « إيجبين » حتى « أكية » وكان ذلك يكلفهن مجهوداً كبيراً غير
أنهن كن يصلن قبل الأخريات ويساعدن فى ترتيب الطاولة والكراسى ثم
يكنسن الفناء .

كان (دولوبو) و(كوى) أكبر أبناء (كوتى) يشاركان فى التعليم ومن مكانى المعتاد فى النافذة رأيتهما يتلاعبان بالحروف والكلمات ويكتبان بطريقة خطأ .. هتفت بأعلى صوتى من النافذة منبهاً عن الصواب فهتف الجميع من الفناء قائلين : هل أنت كسول ؟ .. لماذا لا تأتى وتشاركنا ؟

هبطت السلم بسرعة خاطفة وأصبحت بالصدفة مدرساً فى تلك الحلقات .. إكتشفت أن أكثر النساء من القرى البعيدة المنعزلة فعرفت سر إقبالهن الشديد وذلك الشغف المرتسم على وجوههن من أجل المعرفة .

توقفت النساء عن الحضور مبكراً حتى اللاتى يأتين من أماكن قريبة وأحياناً كن لا يأتين أبداً فقد كان وقت الحصاد .. ظن القادة أن المزارع قد صرقتهم عن الدرس لكنهن عدن مرة أخرى ورحن يقدمن الاعتذارات .

قالت إحداهن : لقد قبض على رجال الضرائب .

ثم توالى الأصوات :

- لقد أخذ ^(١) Parakayi نصف إنتاج مزرعتى لضريبة السوق فذهبت إلى نائب المجلس المحلى طلباً للمساعدة .
- كنا فى الطريق إلى المزرعة حين أوقفنا البوليس وطلب جزءاً من كل ما معنا كضريبة .

• حاولت أن أهرب من الرجل ذى الزى الغريب فضلت الطريق

(١) مراقبو السوق .

ولولا رعاية الله لكنت حتى الآن أتخبط فى الغابات .

• إن أولئك الرجال بلا قلب .. إنهم قساة ينظرون إلينا كما لو أنهم لم يروا امرأة من قبل .

• أمضينا الليلة فى قسم الشرطة حيث حجزوا على كل بضاعتنا حتى نأتيهم بأوراق الضرائب .. لم نذهب مرة أخرى إلى السوق بعد أن إحتجزوا كل البضائع فكيف إذن نستطيع أن ندفع لهم بدون أن نبيع ؟

• إنهم أولئك الرؤساء الذين يرسلون *^(٢) adana للقيام بأعمالهم القذرة لأنهم لا يستطيعون فرض ضريبة على إنتاج المزرعة .

• لا .. إنه آلاك .. إنه القصر .

• إنه الرجل الأبيض .. إن *^(٣) ajele هو الذى يصدر الأمر .. إنه الرجل الأبيض فى لاجوس أما الآخرون فهم عبيد للرجل الأبيض فى لاجوس .

قالت (كيمبيرى) : كفى

تأملتها قليلاً وتذكرت أن هذه المرأة تحمل إسماً مسيحياً .. إن إسمها (إميليا) لكننى كنت أسمع المسيحية المتوحشة و(بيير) يشيران إليها باسم (كيمبيرى) وعندما أشرت إليها بنفس الإسم صفعتنى أمى بظهر يدها

* (1) الوكلاء المنتدبون لمراقبة الفلاحين ونساء السوق .

* (2) الوكيل الإدارى أو ضابط المنطقة .

بقوة واعترضت (بيير) قائلة : لا تكرر هذا الإسم مرة ثانية .

ثم أضافت : إن (كيمبيرى) لقب خاص تطلقه عليها زوجات الحى الذى تقطن فيه وحتى أنا وأمك لا ندعوها بهذا اللقب إلا عندما نكون وحدنا .

كررت (كيمبيرى) قائلة : كفى

أصيب الجمع بذعر شديد وبدأ السخط والتذمر ثم إستطردت (كيمبيرى) :
عن أى شى تتحدثن ؟ وما هذا الذى أسمعته ؟ .. هل فقدت نساء «إيجبالاند»
حرية السير فى شوارع أرضهن ؟ ألا يستطعن ممارسة حياتهن بدون
مضايقة أولئك مصاصى الدماء ؟

لوحث بيدها ثم خاطبت (بيير) زوجة السيد (رانسوم كوتى) : هل سمعت ؟
.. ماذ نستطيع أن نفعل ؟ ها نحن نعلمهن القراءة والكتابة للعناية بمنازلهن
وأطفالهن والآن لا يستطعن الحضور إلى هنا بسهولة .. إن الشوارع مليئة
بمن يعترضهن ويقف حائلاً بينهن وبين الحضور .. يجب أن توفر لهن الحماية
.. على أى شى تكون الضريبة ؟ ماذا يتبقى لهن بعد إطعام الأولاد وتوفير زى
المدرسة ودفع مصاريف المدرسة ؟ إذن .. لماذا وكيف يدفعن الضريبة ؟

إنطلقت الأصوات هادرة فطلبت (كيمبيرى) الهدوء وإستطردت : لامزيد من
الضرائب .. لنخبرهم بذلك .

علت الأصوات بالقبول والإستحسان ثم إختاروا السيدة (كوتى)
لمهمة تقديم طلب إلغاء الضرائب إلى ضابط المقاطعة وقصر ألاك فى

«أبيوكوتا» .

تذكرت «إيسارا» وتلك المرأة التى تسير أربعين ميلاً محملة بالبضائع فوق ظهرها وكتفها وكأنها *omolanke فأصبحت إهانتها هى ومثيلاتها تعد إهانة شخصية لى وقررت قبل أن أغرق فى النوم أننى عندما أصبح كبيراً لن أترك الرجال الحكوميين الذين يرتدون الكاكي يأخذون بنساءً واحداً كضريبة من راتبى الكبير .

كانت مجموعة النساء تجتمع فى الدور العلوى وإستمر الإجتماع حتى وقت متأخر فرحت فى نوم عميق فوق الدكة فى حجرة الطعام وحين إستيقظت فى الصباح التالى وجدت نفسى فوق السرير فى فصل السيدة (كوتى) وسمعت أثناء الإفطار لأول مرة التعبير التالى : «إتحاد نساء إيجبا» .

بعد إعلان الإتحاد بأيام قليلة سافرت (بيير) إلى إنجلترا رغم الحرب لحضور بعض المؤتمرات الدينية أو لمهمة خاصة بالمستعمرات فأصبح د كان المسيحية المتوحشة هو البؤرة التى تتجمع عندها النساء من كل أركان «أبيوكوتا» وصارت ماما (أدونى) تتجول فى كل وقت وبكل مكان كالمارشال بصحبة النساء اللاتى يأتين من مختلف الأماكن القريبة والبعيدة ومختلف قطاعات المدن والقرى البعيدة التى لم يسبق أن سمعت عنها أبداً .

كنت دائماً أهرب من العمل فى الدكان أما الآن فلم يكن من السهل الابتعاد عنه .. كانت بعض النساء تأتين إلى الإرسالية لأول مرة فكنت أقفز

من فوق كتبى وأرافقهن إلى الدكان وفى الطريق كن ينظرن إلىّ ويتعجبين من ذلك الولد كثير الأسئلة لكننى كنت أواصل تساؤلاتى دون خجل .

قلت لذات الكتف المنحنى من حمل البضائع : لماذا لا تمتطين جياذ الرئيس فى «أوتوكو» ؟ .. إن الجياذ تستطيع أن تحمل البضائع !!

ضحكت المرأة ووعدتنى أن تناقش الأمر مع ماما (أونى) فى الإجتماع المقبل .

ساد الهدوء فترة طويلة ولم يخبرنى أحد عن موقف النساء من الضرائب .. هل توقفن عن الدفع أم لا ؟ .. وكنت - رغماً عنى - أستمع إلى المناقشات بين إسحق والمسيحية المتوحشة التى كانت تطلب منه النصيحة فى كثير من المشاكل .. كانت الحركة النسائية تزداد كل يوم فأصبحت المسيحية المتوحشة تسافر إلى مناطق مختلفة لتلتقى بالنساء وتستقبل القوم والعشائر وتعقد الندوات .. كانت قبل أن تغادر تنبهنى إلى ضرورة الإهتمام والعناية بالدكان وغالباً ماكنت أغلقه عند غروب الشمس لكنها كانت تعود متأخرة بعد موعد الوجبة الأخيرة وتواصل حديثها مع إسحق عن خطط الحل العاجل لمشاكل أولئك الضحايا من النساء .

كنت شغوفاً بتناول نصيحة إسحق وإعطائها لأمى فى الدكان وأحياناً كنت أفتح الورقة وأقرأها لمعرفة أهمية النصيحة فلم يكن من السهل أن أتحمك فى شغفى وحب إستطلاعى الذى كان ينمو ويتفجر برحيلى مع المسيحية المتوحشة بصحبة المتظلمات وصاحبات الشكوى .

- سافرت خارج «أبيوكوتا» للمرة الأولى بدون أبى أو أمى .. كان أبى يقوم بإعدادى للالتحاق بكلية الحكومة فى «أبادان» وبعد أن اجتزت الامتحانات بأسابيع قليلة جابنى خطأ إستدعاء للمقابلة فى «أبادان» حيث تعرفت على (أوى) وبدأنا نخطط لمغامراتنا الكبيرة التى سنقوم بها معاً .. كانت ماما وإسحق يعرفان تماماً بأننى لن أتوقف عن المغامرات وجلب المتاعب فاقترحا إرسال رفيق معى .

قلت لهما : تذكروا أننى فى العاشرة من عمري الآن ولقد أمضيت ستة أشهر من التجربة فى مدرسة أبيوكوتا الثانوية بون أن يحدث شئ .

كان الولد الآخر أكبر منى لكن والديه وافقا على سفره وحيداً بعد أن عرفا أنه سيذهب مع ابن الناظر .. كان (جوزيف) مرشحاً لمرافقتى فناقشت الأمر معه قائلاً : إن (أوى) سيكون معى ولقد إعتبرنى والداه ضماناً كافياً لسلامته وأمنه أليس هذا كافياً لأن أعتنى بنفسى ؟

نظر (جوزيف) نحوى بشفقة وقال : ليت الرجال البيض فى مدرستك الجديدة يكونون من المحبين للأولاد كثيرى الجدل والنقاش ؟!

أعلنت النتائج النهائية وكان إسمى فى القائمة .. لقد قبلونى ولكن ليس للمنحة الدراسية فكان ذلك يعنى أن أنتظر عاماً آخر ومحاولة أخرى .

فكر (جوزيف) مدة طويلة وكانت تطارده الأفكار السوداء حين ذهب للمسيحية المتوحشة وقال : ماما .. أرجوك أن تتوسلى إليه ألا يتناقش كثيراً مع الرجل الأبيض ويجب أن يقلل من أسئلته فقد يقبلون ذلك منه لكونه ذكياً

وماهراً ولكننى لا أعتقد أنهم سيتركونه يمزق روعسهم إلى قطع صغيرة بأسلته .

كان نجاحى فى المقابلة وسفرى بمفردى إلى «أبادان» يمثل أملاً كبيراً بالنسبة لى لكن الرغبة سرعان ما توارت فى مؤخرة رأسى حين تذكرت أننى سأفتقد الإرسالية التى نعيش فيها وحدائق الفاكهة وجداول الماء والمزارع وبعض الألعاب الصغيرة .

- كان حب إستطلاع (رانسوم كوتى) وفضوله بلا حدود .. قال لى : إن المدرس الأبيض لا يستطيع غرس الأخلاق فى التلميذ وتنمية شخصيته لكن مدرسة مثل مدرسة أبيوكوتا الثانوية تفعل ذلك .. كيف ترى أولئك المدرسين البيض ؟

قلت له أننا لم ندرس شيئاً حتى الآن لأننا مانزال فى مرحلة الإختبارات والإعداد لإمتحانات القبول .

فأجاب : نعم .. لكنهم يتحدثون إليكم ويتحدثون أنتم معهم فما هو إنطباعك عنهم ؟

• يبدو أنهم ظرفاء لكننى مازلت أجد صعوبة فى فهمهم .. نحن جميعاً لا نستطيع أن نفهمهم بسهولة لأنهم يتحدثون من أنوفهم .

• سوف تعتاد على ذلك كما حدث لى .. لقد عرفت الرجل الأبيض فى وطنه .. إن بعضاً منهم ليس شيئاً ولكنهم كمدرسين .. لا .. أنا لا أعرف لماذا

يريد (أيو) أن يرسلك إلى مدارسهم !!

قلت دون تفكير : إننى الآن أحب المكان .

تلاّأت عيناه وقال : هل يروقك المكان حقاً ؟

• أعتقد أننى أحبه ياعمى أو يبدو أننى سأحبه .

نظر إلىّ كما لو أنه يرانى لأول مرة ثم قال وهو يحدّق فىّ : حقاً

لكنك لم تمكث عاماً كاملاً هنا حتى تستطيع أن تقرر .

قلت بإصرار : أنا أحب المدرسة وأتمنى لو إستطعت الحصول على المنحة

الدراسية .

قال بغضب : إننى أحاول فقط أن أجد ميزة واحدة ولكن لا يهتم

(أيو) يتمنى حصولك على المنحة وسيكون ذلك شيئاً حسناً بالنسبة له لكنك

سترانى فى كل أجازة وعندئذ أريد منك معرفة تفاصيل الدراسة وكيفية

قيامهم بالتدريس .

وعده أننى سأفعل فاستطرد قائلاً : سيعلمونك أن تقول «سيدى» .. إن

العبيد فقط هم من يقولون «سيدى» لكنها أحد أساليبهم فى تنمية شخصية

الأولاد فى هذا السن .. «سيدى» .. السيد .. السيد .. السيد !! شئ سئ

للغاية وعلى أية حال فإنك سوف تأتى لترانا فى الأجازة .

تذكر شيئاً آخر فقال : إنهم أيضاً لا يستخدمون العصا وهذا خطأ كبير

• لا أعتقد أيها المدير .

• ألا تعتقد بأهمية العصا فى تكوين الشخصية ؟

• لا .. أيها المدير .

• أوه عزيزى .. أوه .. هل أنت إبْن (إينيو لا) الوحيد بين الناس ؟

• لا .. أيها المدير .

تنهد قليلاً وهز رأسه مرة أخرى بحزن وإكتئاب ثم واصل سيره نحو
الطريقة .

– كانت (بيير) فى إنجلترا وكانت الصحف فى الصباح تشير إلى
أنشطتها هناك حيث قالت فى أحد المؤتمرات أن نساء «إيجبالاند» يعانين من
الفقر وكيف أنهن تعيسات .. أفردت إحدى الصحف مقالاً طويلاً عن
إدعاءاتها وهاجموها لقول مثل تلك الأكاذيب حتى إعتبرها البعض خائنة
لنساء وطنها ودعا المقال الشعب البريطانى لزيارة «أبيوكوتا» بأنفسهم لرؤية
النساء المتيسرات ومعرفة المستوى اللائق الذى تعيش فيه نساء «إيجبالا»
والتأكد من وفرة المستشفيات ونظافة الشوارع وجوده المساكن .

قاموا بتحذير السيدة (رانسوم كوتى) بالابتعاد عن شئون النساء وعدم
الحديث عن أحوالهن وأن ذهابها لإنجلترا لا يعنى أن تتدخل فيما لا يعنىها
لأن ذلك الشئ خاص بالرجل الوحيد الذى يقوم بأعمال الخير .. إنه الرجل
فى قصر «أبيوكوتا» الذى يعتبر أياً لكل الناس فى «إيجبالا» .

نظمت المجموعة إجتماعاً توافدت إليه النساء من كل صوب للإتفاق على رد مناسب لذلك الهجوم .. كانت نفس الصحيفة قد كتبت تحت توقيع باسم (أونلوكر) تقول بأن الكاتب يؤيد كل ما أعلنت عنه (بيير) ولفت إنتباه القراء إلى الأكواخ والعشش العديدة المنتشرة فى «إيكيرودو» و «إيبيريكودو» و «أجو» حيث تعيش النساء كالفران .

تناولت (ما إجبور) ذات الشعر الأبيض الصحيفة وقرأتها على الجميع فانطلقت صيحات الإستحسان فى الهواء ثم جاء دور (كيمبيرى) فى الكلام : إن صحيفة أخرى كتبت تقول أنكن جميعاً مليونيرات كما يقول أولئك الأوباش فى القصر الذين جمعوا ثروة من ^(١) * jibiti ومازالوا يختالون داخل وخارج القصر موشحين بالحلوى والذهب .. لقد نسوا أنهم يعيشون بين أولئك الذين لا يستطيعون إطعام أطفالهم مرتين فى اليوم .. إن (بيير) على أية حال توشك على العودة وعندئذ سيعرف شعب «إيجبا» من يكون ^(٢) * odale الحقيقى .

- كان (داودو) يتجول وسط عاصفة من الضحكات المتتالية قابضاً بيده على نسخة من كلام (أونلوكر) حين قال : ماذا يجب أن تفعلن أيتها النساء ؟
أقترح طبع مئات من النسخ تكون معكن لتوزيعها فى الميناء عند مقابلة (بيير) إرتفعت أصواتهن بالموافقة ثم بدأن الإجتماع من جديد بينما راح

* (1) الغش والخداع والإحتيال .

* (2) الخائن .

(داودو) يواصل تجواله لكنه عاد بعد عشر دقائق قائلاً : ألف نسخة .. نعم
ألف نسخة لكل من يهبط من الميناء .. لكل الناس خاصة لأولئك القادمين
للقصير .

أبدت النساء إستحساناً للمرة الثانية وإرتسمت على وجوههن علامات
الرضا والقبول ولم يكد (داودو) يصل إلى نهاية الطريق حتى عاد مرة أخرى
بنشاط وسرعة وقال : عشرة الاف نسخة .. نعم .. عشرة آلاف نسخة وسوف
نجد النقود بطريقة أو بأخرى .. عليكن ببعثرتها فى الهواء لتنتشر رغم أنف
الحكومة الإستعمارية فى لاجوس .. نعم .. عشرة آلاف نسخة .

أوشكت (بيير) على العودة فراح (داودو) يعد نفسه للترحيب بزوجته ولم
ينسى أى شئ .. طلب أباريقاً ضخمة للماء لرش الإرسالية كلها بالماء وتناقش
مع المسيحية المتوحشة وقيادات المجموعة الأخرى عن كيفية توفير الطعام لكل
الراغبين فى الحضور إلى الإرسالية .

فكرت فيما يدور برأسه واعتقدت أن (داودو) كان حريصاً على أن تكون
عودة زوجته للوطن إنتصاراً كبيراً يبدأ من لاجوس حتى يعرف أولئك الذين
ينتقصون من شأنها من هو الخائن الحقيقى .

– بعد عودة السيدة (كوتى) أقاموا مهرجاناً كبيراً فى مدرسة «أبيوكوتا» والمنطقة المحيطة بها .. أصدر (داودو) الأمر بإحضار مئات من المصابيح وكانت قوائم الخيزران منتصبة بإمتداد الطريق .. جهزوا مطبخاً كبيراً حول الحقول مضاءً بالمصابيح وكذلك كانت عوارض الأعمدة الكبيرة متلائة بالإضاءة التى إنعكست على المقاعد والموائد فى الحديقة فبدا الليل وكأن ملايين الحشرات المضيئة العملاقة قد غزت الإرسالية .

كانت الصوانى الضخمة والأوانى والأطباق والسلال تتحرك عبر الضوء محملة بالطعام وكانت الأغاني تتردد فى المكان وكلما ظهر (داودو) أو (بيير) فى أى جزء من أجزاء الإرسالية كانت الهمسات ترد : « داو .. و .. و .. و .. و .. و .. »

تدفقت مجموعات النساء إلى الإرسالية دون إنقطاع وكانت دقات الطبول تتقدم بعض المجموعات التى سرعان ما إنتشرت فى المكان معبرة عن إختفائها بقدوم (بيير) بالرقص والغناء .

لم يسبق أن رأيت (داودو) فخوراً بنفسه هكذا .. كنت ألاحظه بدقة كلما إقتربت منه فبدا لى وكأننى أرى حدثاً نادراً .. كان رجلاً كبيراً تبو عليه السعادة دون خجل ولأول مرة أشاهده يتقدم بصدرة للأمام متجولاً من جانب إلى آخر وهو يمسك بالعصا الضخمة بين يديه .

كان يبقى كثيراً فى الدور العلوى مكتفياً بالنظر من النافذة ولم يكن يهبط

إلا قليلاً لإصدار الأوامر والتعليمات وللإشارة إلى بعض الأشياء الخاصة .

كان من الواضح تماماً أن (داودو) صديق كبير لإتحاد النساء .

– إتسمت إجتماعات النساء بالجدية والسرعة وكان إسحق يعيد صياغة ما يكتبه بخطه الجميل ويدفع بالورقة ناحية المسيحية المتوحشة قائلاً : لماذا لا تناقشين هذا غداً مع النساء ؟

أصبحت أقوم بدورى كرسول متنقلاً بسرعة ونشاط بين «إيجبين» و «أكية» والدكان وماما (أنونى) وماما (إيجبور) و(كيمبيرى) وإستعادت المجموعة دروس القراءة والكتابة وبدأت أسأل نفسى : ألا توجد بين تلميذاتى زوجة أجمل من السيدة (أدوفوا) ؟ .. كانت أصغر النساء وأجملهن وأكثرهن حياة وفتنة ثم عرفت أنها لم تكن متزوجة فقررت الزواجة منها .. خاصة وأن بعض النساء كن يتهامن عن ضرورة زواج مدرسهن الصغير – بعد أن أصبح طبيباً .

خصصت النساء فى إجتماعاتهن ساعة للقراءة والكتابة وعلم الحساب وساعة أخرى لتبادل الأسئلة عن الصحة وبعض الوقت لمناقشة مشاكل الضرائب .. كن قد رفضن الطلبات الكثيرة التى تقدمن بها للإعفاء من الضرائب فاخترت المجموعة وفوداً جديدة وكتبت النساء مزيداً من الطلبات حتى إمتلأ مكتب ضابط المقاطعة بالطلبات والعرائض والتهديدات .

سافرت السيدة (كوتى) مرات عديدة إلى لاجوس للحصول على مزيد من التأييد حتى سمعنا بعد فترة طويلة عن تكوين «إتحاد النساء النيجيرى» .

أصبح الإتحاد معروفاً على أوسع نطاق وكان الكل يشارك في وضع نهاية لحكم الرجل الأبيض في البلاد فكان السجن عقاباً لكل من يطالب بمغادرة الرجل الأبيض .. إعتقلوا بعضاً من الشباب القوميين وكثيراً من الأسماء الجديدة التي إنضمت للحركة .

- كان البعض يعد نفسه لزيارة إنجلترا كما فعل (داودو) و(بيير) وكانوا أيضاً يطالبون بضرورة الانتهاء من حكم الرجل الأبيض فراح الناس يتجولون في كل البلاد يجمعون النقود ولم يبخل إتحاد النساء بمساندة تلك الجهود بكل قوته وإمكانياته .. عقد كثيراً من المؤتمرات والمشاورات وكان من اليسير أن نساهم نحن الصغار بمصروف جيوينا الصغير إدراكاً منا لأهمية الهدف الكبير .

- كن يناقشن مشكلة الضرائب حين نهضت سيدة عجوز بمساعدة أخريات .. تقدمت بجسدها الضعيف نحو المجلس وقالت : سمعت أن بعض الناس هنا يفعلون شيئاً لانقاذنا من المعاناة التي تثقل كاهلنا والتي يفرضها رجال الضرائب .

كانت أصابعها تتردد فوق عقدة اللقافة وحين نجحت في فكها أخرجت قطعة من الورق وإستطردت : هاهي .. إنها سبب كل المشكلة .. سأحكي لكم .. كان لي ولد وحيد مات منذ ثلاثة أعوام وله ثلاثة عشر طفلاً .. هل

تسمعون؟ ثلاثة عشر طفلاً من زوجات مختلفات .. أحضروهم عندي وكلهم صغار فقلت لنفسى : ماذا أفعل بأولئك الأطفال وأنا وحيدة بدون زوج ؟ .. كان لابد بالتفكير فى كيفية الحياة فتذكرت مزرعة إبنى التى كان يعيش منها وقالوا لى : (إيا) .. يجب أن تفعلى شيئاً .. إذهبى لتعتنى بالمزرعة بمساعدة إحدى زوجات إبنك وعندئذ تستطيعين الإنفاق على الأطفال وتعليمهم .

قلت : ذلك شئ جيد فالعمل أفضل من التوسل .

ثم سارعت إلى المزرعة من أجل العيش حتى لو تعثر تعليم الأطفال .. كان العمل شاقاً جداً بالنسبة لى كامرأة عجوز لكن رجال الضرائب حضروا منذ اسبوعين وأعطونى هذه الورقة قائلين : أنت تملكين مزرعة كبيرة .

لكنهم لم يقولوا شيئاً عن الأطفال الثلاثة عشر والنساء الأربعة اللاتى يعتمدن على المزرعة ويتطلعن إلى إنتاجها .

هاهى الورقة أمامكن .. من أين لى الحصول على تلك النقود المكتوبة فى هذه الورقة .. أخبرونى أين توجد النقود لأذهب وأبحث عنها ؟ .. إننى لم أر أبداً فى حياتى مثل هذه النقود الكبيرة .

كن ينصتن فى هدوء ثم راحت الورقة تتحرك من يد إلى أخرى حتى إستقرت أمام السيدة (كوتى) فوق المنصة .

إندفعت (كيمبيرى) فجأة من خلف المنصة .. دفعت الكرسي بجسدها

وقالت : كفى .. لقد سمعنا بما فيه الكفاية * O ya, e nso L'AKE ! .

نهضن محلقات بأيديهن فوق رءوسهن وقد فكت كل واحدة منهن رباط رأسها وربطته حول خصرها ..

كانت (كيمبيرى) تقود الطريق وهن خارجات من الإرسالية فإمتلأت الشوارع المؤدية إلى القصر فى «أكية» .

- كان الممر الواسع المربع يتصدر قصر «آلاك» ويفصل بين أسوار القصر والشوارع العامة وكان دكان المسيحية المتوحشة يقع فى نهاية ذلك الممر فى الجانب الآخر من الشارع .. كان الممر نظيفاً ومحاطاً بالأحجار البيضاء والأشجار وكانت البوابة المقوسة تؤدى إلى مبنى القصر ويجلس فوقها تمثال لأحد الأفيال كان رمزاً ملكية «إيجبالاند» وعند أطراف الممر على اليمين كنا نلمح أشكالاً من الخشب والطين الخزفى .

- كنا من خلال الدكان نشاهد الأجبونى وهم يسارعون طوال ساعات النهار للالتحاق باجتماع الرؤساء .. كانوا يسيرون بخطى سريعة وبقوة تشير إلى صحتهم العفية وهم يرتدون الثياب الواسعة التى تتدلى من أحد كتفيها الأشرطة .. كان البعض منهم يرتدى شباشب من الجلد أو القماش وقبعة من القماش يتدلى منها فوق أحد الأذنين جراب أو كيس ويمسكون فى يدهم اليمنى بمجموعة من حديد أو نحاس المكتب كان الخدم يتولون حملها نيابة عنهم وكانت أيضاً تلك المراوح الكبيرة من الجلد المقوى لكن أكثر ما كان

* حان الوقت .. دعونا نسير نحو أكية .

يميزهم هي تلك القبعات ذات الحواف العريضة المصنوعة من الجلد والمزينة بالألوان والقشور والخرز .

كانوا يمشون في «أكية» هادئين كأرواح الموتى تبدو على وجوههم سيماء الحكمة وكنا نخاف منهم .. وننظر إليهم بمزيج من الرعب والإفتنان .

كانت المباني تحتوى بداخلها على المكاتب وحجرات مجلس الإدارة البلدى وبداخل المبنى الكبير كان ثمة سرداب طويل يؤدي إلى الفناء حيث الانفصال الكامل عن العالم الخارجى .. كان السور المنخفض على شكل نصف دائرة يحيط بالفناء وكان مزخرفاً بالتماثيل على شكل الإنسان والحيوان .

عند ظهور (آلاك) فى الشرفة كان الرجال ينبطحون على الأرض بينما تركع النساء على أرجلهن ويزحفن على الأرض ثم ينادى رؤساؤه على مقدمى الطلبات وأصحاب الشكوى وينتهى الأمر بإصدار الأحكام وتقديم النصائح وبعض الوصايا .

عرف الوقت الذى يظهر فيه (آلاك) فكنت أخاطر بالذهاب لمشاهدة مختلف الناس المتوسلين وحدث أن رأيت ذات مرة فأشار لى وتملكنى الرعب .. قفزت من مكانى واتجهت ناحيته بهدوء لكنه كان ظريفاً معى وكان الخدم يضحكون فى السر غير أننى لم أملك الشجاعة الكافية لإغراقه بأسئلتى .

إكتشفت ذات مرة أحد الممرات المؤدى إلى دهليز منحنٍ يؤدي بدوره إلى حجرات الحبس حيث يقف رجال البوليس الذين يتظاهرون بأنهم حراس القصر .. كانوا يفتحون باب ذلك الممر فتخرج مجموعة من المذنبين والمذنبات

يلقون بهم فى تراب الفناء أسفل (آلاك) الذى يطل من الشرفة ويسألهم بصوت رفيع حزين : لماذا أيها الناس لا تدفعون الضريبة حتى لا تجبرونا على فعل ذلك ؟

تزاحم الناس عند بوابات القصر وكم أدهشتنى ماما (إيجبور) بوصولها السريع مع الآخريات .. إنحتن المسيحية المتوحشة إحتراماً عند ظهور (آلاك) وكذلك فعلت ماما (أدونى) والآخريات بما فى ذلك (كيمبيرى) وكان واضحاً أن (آلاك) يستقبل الوفود بلطف ومجاملة فراح يتحدث إليهن بطريقة مهذبة توحى بالإبوة وبدا وكأنه مقتنع بكل ما تحدثن بشأنه .. كان يتحدث إليهن وكأنهن بناته أو صديقاته أو قريباته .

ركعت (كيمبيرى) مرة ثانية وقدمت له التحية قائلة : (كابينزى) .. أوه (كابينزى) .. إننى أتوجه إليك اليوم باسم كل النساء اللاتى تركزن منازلهن وأطفالهن والمزارع والشئون الصغيرة لزيارتكم اليوم .. إنهن متجمعات فى الحديقة الأمامية ويمكنك أن تشاهدهن بنفسك (كابينزى) .. إنهن نساء «إيجبا» ولقد جئن للقول : كفى .. كفى .

إن السيدة (كوتى) هى التى سألتنى أن أخبرك بشأن النساء المتجمعات بالخارج .. إنهن جائعات وأطفالهن جوعى وليس لديهن أى أمل فى التعليم أو الحلم بمستقبل أفضل .

كانت الأسواق قديماً تنعم بالهدوء والاحترام والأمان وكنا طوال فترة بقاءنا فى السوق نحس وكأننا فى بيوتنا أما الآن فإن رجال الضرائب

ورجال القصر يضايقوننا ويضعون أيديهم على الملح والخضروات والمحصول
والزيت وكان ذلك من حقهم .. يقولون بأنهم مجبرون على فعل ذلك من قبل
الرؤساء والمجلس ونحن نقول : كفى .. كفى .. لانريدهم فى الأسواق بعد
اليوم .. يجب أن يرحلوا بعيداً عنا .. إنهم يرسلون البوليس للقبض على
نساننا وحبسهن وجلدهن بالسياط .. لانريدهم فى الأسواق بعد اليوم .

أخبرتتى السيدة (كوتى) أن أخبركم بأننا نكتب الطلبات ونعقد
الإجتماعات ونتقدم بالإحتجاج فى كل مكان ضد ذلك الظلم فى فرض
الضرائب .

ارتفع صوت (كيمبيرى) وهى تواصل حديثها حتى سمعته النساء فى
الفناء فهضن على الفور وارتفعت صيحاتهن حتى ملأت سماء «أكية» :
(لامزيد من الضرائب .. لاضرائب بعد اليوم) .

كان (آلاك) جالساً يتأمل المشكلة فى ذهول .. إنتظر حتى يسود الهدوء ثم
قال : (إميليا) .. أشكرك جداً .. أشكركن جميعاً وأتوجه بشكرى للسيدة
(كوتى) التى لاتوجد هنا الآن .

قاطعته (كيمبيرى) قائلة : إنها قادمة فى الطريق .

بدأ عليه القلق لكنه سرعان ما عاد إلى طبيعته وقال : هل هى قادمة؟ ..
أه .. حسناً .. إن رائدة جديدة ستنضم إلى الجمع .. ولكن دعونى أسألكن
أيتها النساء : هل تعتقدن بأننا نستطيع ؟ .. إن الضرائب قديمة قدم المجتمع
الإنسانى ولا يستطيع أحد أن يلغيها هكذا ببساطة .

أجابت المسيحية المتوحشة : (كابينزى) .. أتوسل إليك أن تتأمل الأمر .. فكر فى الأمر بعناية فليس الوقت مناسباً لمعرفة أن أجدادنا كانوا يدفعون الضرائب .. إننا نتحدث اليوم عن نساتنا اللاتى لا يستطيعن دفع الضرائب .

قال (آلاك) : قد يكون ذلك حقيقياً وأنا أعلم مدى الورطة التى تعانى منها النساء لكن سؤالى مازال مطروحاً : هل يمكن ذلك ؟ .. وعلى أية حال فإننى لا أستطيع إتخاذ قرار فى هذا الشأن فلست أنا الذى أفرض الضرائب وإنما مجلس الحكومة فيجب أن يتحول إليهم الأمر لكننى أسألكن مرة أخرى : هل تعتقدن أن ذلك ممكناً ؟

نهضت (كيمبيرى) من مكانها مذعورة وهزت رأسها بقوة قائلة : لا .. لا .. أوه (كابينزى) .. لقد جئنا إليك كأب لنا .. جئنا إلى الشخص الذى نعرفه فنحن لا نعرف مجالس أو حكومات غيرك أنت .. أنت الحكومة والحكومة هى أنت ولقد جئنا لتتحدث إليك ولانريد الحديث مع أحد غيرك وكما قالت زوجة الناظر يجب أن تفكر فى الأمر وتتأمله بعناية شديدة .

قال (آلاك) مؤكداً : سوف أفعل .. سوف أفعل لكننى مضطر لإستدعاء المجلس وقد أصدرت أمراً باستدعاء أعضائه منذ قليل فالأمر لا يتعلق بالقصر وحده ولا يمكن الانتهاء منه فى ليلة واحدة .. إعطونا بعض الوقت واخبروا الناس بأننى وعدت بالنظر فى الموضوع .. سوف نضع فى اعتبارنا كل شئ فى اجتماع المجلس .

تنهد قليلاً ثم إتجه ناحية المسيحية المتوحشة بلهفة وضيق قائلاً : دعينى

أسألك شيئاً .. أنت زوجة ناظر المدرسة وإنه المسئول عن المدرسة وأنشطتها المختلفة وهو الذى يقرر سياسة المدرسة ويتولى شئونها والآن تخيلى معى بأنه يجب أن يتخذ قراراً هاماً خاصاً باتجاه المدرسة مثل زيادة أو نقص مصاريف المدرسة أو تغيير مناهج التعليم فهل يستطيع الناظر أن يفعل هذه الأشياء بمفرده ؟

أجابت ماما : لا .. (كابينزى) .. لابد أن يعقد إجتماعاً يضم المسئولين فى المدرسة أوماً (ألاك) برأسه قائلاً : نحن إذن متفقون والآن لنفترض أن أولئك المسئولين رفضوا اقتراحات الناظر التى يؤمن بها ويرى أنها ضرورية فماذا عليه إذن أن يفعل ؟

كانت المسيحية المتوحشة تنظر إلى الأرض حين هزت رأسها بأسى وقالت : (كابينزى) .. إن من تحدث عنهم هم * agba-igba وليسو مثل الأطفال الذين جئتنا من أجلهم الآن .

أومات كل النساء برعوسهن فى حزن وراح (ألاك) يتطلع فى الجمع المحتشد فى الفناء ثم تنهد ومضى إلى الداخل .

ارتفعت الصيحات فى السماء مرددة : (بيد .. يد .. يد .. ير) معلنة عن قدومها .. أحاطوها من كل الجهات وأصبح المر المؤدى إلى الفناء مزدحماً ..

شعروا أن شيئاً خطيراً قد يحدث فأرسلوا فى طلب ضابط المقاطعة ورجال البوليس .. حاول الضابط أن يشق طريقه وسط الزحام لكن النساء كن * أطفال أكبر سناً وحالتهم جيدة .

يضايقنه حتى صار وجه الرجل الإنجليزي أكثر إحمراً وعرف أنهم
يضحكن عليه فأصدر الأمر لرجال البوليس أن يفسحوا الطريق بالقوة
وعندئذ وصل إلى حيث توجد السيدة (كوتى) المحاطة بقلق النساء وأسئلتهن
الكثيرة.

ثار غضب النساء عندما ضغط عليهن رجال البوليس لإفساح الطريق
فرحن يطلقن صيحات السخرية من الضابط الذى أصبح وجهه ورقبته بلون
الخشب الأحمر وتجاوز الإهانة حتى دخل فناء القصر .

شعرت تماماً أن إحساسه بالأهانة والتحقير جعله يحتذى بالقصر .. صعد
إلى الشرفة المطلة على الفناء ثم صاح فى السيدة (كوتى) : إنظرى هنا أيتها
السيدة .. جئنا هنا لنعقد إجتماعاً هاماً فهل تتكرمين بإبعاد نساءك؟!

أجابت السيدة (كوتى) : ونحن أيضاً نعقد إجتماعاً هاماً أم أنكم تعتقدون
أننا هنا لنلعب ؟ !

صاح الرجل بغضب : حسناً .. أخبريهن إذن بالتزام الصمت والهدوء .

صمتت السيدة (كوتى) لحظة ثم قالت : معذرة .. عليك بمحادثتى أنا .

* نعم .. بالطبع أنا أتحدث إليك .. قولى لهن أن يلتزمن الصمت .

ساد الهدوء بعد صياح الرجل لكن السيدة (كوتى) أجابته بطريقة غاضبة
ظل صداها يتردد فى «أبيوكروتا» لأسابيع طويلة .

قال الضابط بعد غضب السيدة (كوتى) : هل تتحدثين إلى أمك بمثل هذه الطريقة ؟

تقهقر الضابط فاتحاً فمه وسط تذرر وغضب النساء وارتفعت الهتافات فى الأفق مطالبة (آلاك) بالتخلص من ذلك الرجل الأبيض الوقح وتقطع أعضائه التناسلية لإرسالها إلى أمه .

تراجعت إلى حافة الفناء خوفاً من أن تدوسنى الأقدام الكثيرة وحين مررت بجوار السيدة (كوتى) وسط الزحام رأيتها لأول مرة تبتسم وتقول :
(1) * Hm,I'oogun,o ti ya de'bi .

جاء رجل أبيض من مقاطعة «إيجبا» كان يبدو متغطرساً وهو يمشى فى الممر .. أثارت ثورة النساء غضبه فراح يؤكد سلطته وهو يصفر مختالاً وقال بصوت أجش مثل شكله : هاآم .. لقد فسد العالم .. إن العالم يوشك على نهايته عندما تحاول تلك إل (2) * agb'eyin - to محاصرة القصر وإثارة القلق .

ثم إرتفع صوته أكثر وهو يقول : إذهبن إلى منازلكن للعناية بالمطبخ وإطعام الأطفال فماذا تعرفن عن شئون الدولة ؟ ألا ترغبين فى دفع الضرائب ؟ .. أنتن بحاجة للضرب بقوة فوق أردافكن .

تظاهرت النساء مرة ثانية وعلت الصيحات والهتافات فلم يعد أحد يشك

* (1) هاآم .. هل يوجد الرجل المكافح هنا .

* (2) النساء اللاتى يتبولن من المؤخرة .

فى قوة النساء الروحية وقوة (بيير) العظيمة .

أصيب الرجل فى فخذه وهو يواصل تهديداته ولحقته ضربة أخرى من أحد الإتجاهات فبدأ يترنح وارتسمت على وجهه علامات الحيرة ثم سارع بالزحف وهو فى حالة متدهورة ثم هجمت النساء على واحد من الستة الذين جاؤا معه ومزقن شاله والمروحة والبرنيطة وكررن نفس الشئ مع الآخرين تاركين إياهم بملابسهم الداخلية فقط فلأذوا إلى القصر بينما هرع البعض عائدين إلى منازلهم .

أسرعت إلى الدكان للإحتماء بالمسيحية المتوحشة التى كانت قلقة بشكل ما من ذلك العنف .. لم أصدق أبداً أنها تكره العنف .

كانت ترتب البضائع أمام الدكان حين شاهدت واحداً من الأجبونى يمشى بثقة نحو «أفين» ولا يعرف شيئاً عما يحدث فصاحت قائلة : بابا .. بابا .. إلى أين أنت ذاهب ؟

أجاب : إلى «أفين» حيث تم إستدعاؤنا من أجل بعض المشاكل هناك .. هاأنذا أسمعها من هنا .

* بابا .. إرجع بسرعة .. إذا شاهدتك النساء

ثم إندفعت إلى الخارج وسحبته إلي داخل الدكان وأغلقت عليه ضلفة واحدة من الباب وقالت : بسرعة بابا .. إنزع عنك هذه الأرواب وتخل عن ملابس الأجبونى .

شعر الرجل بالأضطراب من سرعتها وصوتها وحركتها فقال لها : Enh?
(1) * Ewo tl tun de yi ? enh ?

توجهت ماما خلف الباب وتناولت شاله وقبعته وألقت بهم خلف الشباك
وقالت : بابا .. تخلص أيضاً من العباية وأقذف بها إلى الخلف مع بقية
الأشياء واحتفظ فقط بينطلونك .

بعد لحظات قليلة كانت النساء قد إقتربن من الدكان وشاهدن الرجل
الأجبونى .. لم تحاول المسيحية المتوحشة أن تنكر وجود الرجل وقالت : إذا
كان هو هذا العجوز الذى تبحثن عنه فإنه بالداخل لكنه ليس أجبونى .

قلن بإستنكار : آه .. ماما (وول) .. كيف تقولين ذلك وقد شاهدناه
بعيوننا؟

* لقد كان كذلك أما الآن فلقد تغير .. لقد قلت له أن تخل عن ملابس
الأجبونى لعدم القدرة على إحتماهم اليوم .

قالت إحداهن مقاطعة : إنهم مازالوا أعداء سواء بملابسهم السخيفة
أو بدونها .. أليسوا هم الذين يفرضون علينا الضراب .. دعينا ماما ننال
من هذا الرجل قبل أن يذهب .

هتفت الأخريات بصيحات التأييد فأضافت أخرى : اليوم يوم حسابهم
جميعاً فدعيه يخرج يا ماما .
* (1) ما هذه التطورات الجديدة ؟

قالت المسيحية المتوحشة : أنا لا أعرفه وتستطيع واحدة منكن أن تدخل وتساله .. إننى أعرف اثنين أو ثلاثة منهم فقط فأرجو ألا تفهمن أننى أقوم بحمايته لأنه ⁽¹⁾ *ibatani ولكننى لا أحب المتاعب ولا أحب كل ذلك العنف لأننا لم نعد أنفسنا له .

هدأت ثورتهم قليلاً لكن إحداهن قالت : دعيه يخلع كل ملابسه ويتخلى عن كل أشياءه فلا نريد رؤية أى منها فى شوارع «أبيوكوتا» اليوم أو غداً وأيضاً للأبد .

هزت ماما رأسها قائلة : بابا .. إطو ثيابك بعناية وأربطها جيداً ثم إذهب إلى منزلك .

تنهد الرجل قائلاً : أه .. لست فى عجلة من أمرى .. سأبقى هنا حتى يهدأ كل شئ .

قالت المسيحية المتوحشة للنساء : ماذا تردن أكثر من ذلك .. إنه خائف منكن فاذهبين أولاً ليغادر هو بعد ذلك قالت النساء : دعينا نتأكد أنه ليس واحداً من أولئك الذين يجب أن نحذر منهم .

إضطر الرجل العجوز أن يقدم نفسه ثم أقسم أنه طوال حياته لم يكن ضد النساء وأنه كان يطالب بالغاء الضرائب وكثيراً ما أخبر (كابينزى) عن أولئك الطفيليين كما إن زوجته شاهدة علي مايقول لأنها أيضاً كانت تتاجر فى السوق .

* (1) أحد الأقرباء .

إنصرفت النساء فإنحنى الرجل العجوز عدة مرات معبراً عن شكره
وامتنانه للمسيحية المتوحشة ثم أسرع بينظونه مخلفاً وراءه ملابس الأجنبي
قائلاً لنفسه : يمكننى إحضارها غداً .

قبل الفسق بقليل ساد الهدوء لكن النساء كن قد قررن محاصرة
القصر حتى يحصلن على كل المطالب فبدأت الفرقة الموسيقية تتحرك فى كل
الطرق والممرات المؤدية إلى القصر .. تدفقت النساء من كل صوب قبل ساعة
من غروب الشمس ووسط كل ذلك الزحام كانت امرأة تعاني الألم المخاض
فشاهدت لأول مرة ميلاد طفل .. أسرعت السيدة (كوتى) نحو المرأة ورأتنى
واقفاً فى هدوء وسط حلقة من النساء .. شاهدت إحداهن تدفن الخلاص تحت
شجرة فى الحقل وراحت تنظف المولود وتربط الحبل السرى .

إشتد الزحام بعد وصول كثير من القوافل الأخرى فهزت ماما
(إيجبور) رأسها وقالت : كأن السموات فتحت أبوابها وتفجرت القبور عن
الموتى فجاءوا جميعاً لمشاركتنا .

إرتفع صوت بالغناء وكان الجميع فى حالة من الدهول والنشوة
والابتهاج .. كان الجميع يغنى فى الليل :

La - illah - il - allah

Anobi gb' owo owa

On'ise nla gb' owo owa

Anobi gb' owo wa

Ate' le ni ma ya gb' owo owa

Anobi gb' owa o wa *

* لا إله إلا الله

ساعدنا أيها الرب

رب الأعمال الكبيرة .. ساعدنا

أنت الذي تقف بجانبنا .. ساعدنا

أيها الرب .. ساعدنا

صدر الأمر بإغلاق الأسواق ودكاكين النساء ومصادرة بضائع من لا يلتزم بالأمر وارسالها إلى فناء القصر .. حاصروا النساء اللاتي رحن يتجولن فى أرجاء المدينة وانضم الرجال اليهن نحو مزيد من التشجيع والتغلب على الخوف الذى أصاب بعضهن .

غضب بعض الرجال من زوجاتهم الخائفات ودفعوا بهم للمشاركة لأن ما يحدث من أجلهن .

ذات صباح أمر أحدهم زوجته بالذهاب إلى القصر بعد أن قدم لها نقوداً لإنفاقها فى طعام الأخريات مؤكداً لها أنه سوف يعتنى بالأطفال حتى ينتهى كل شئ .

تصاعدت الحركة فى اتجاه «أفين» فترك بعض الرجال الآخرين مزارعهم للانضمام إلى الحركة بينما توجه بعضهم إلى المزرعة لإحضار البطاطا والفاكهة والنبيد لتقديمها للنساء .

- كانت (بيير) والمجموعة يتناقشن مع الضابط الجديد بعد أن قدم الضابط الأسبق إستقالته وكانت الإجتماعات مع مجلس القصر لا تتوقف ولكن دون الوصول إلى حل من الطول وعند نهاية كل إجتماع كن يخبرن بقية النساء والرجال بعد التوصل إلى حل فيجيبون بالغناء والرقص نحو مزيد من التحدى .

فى الصباحت التالى بعد أحداث الشغب الأولى أرسلوا من لاجوس قوة مسلحة من البوليس راحت تراقب الموقف من بعيد وهم يمارسون التدريبات بثقة بينما كانت بعض النساء يسخرن منهم بتقليد حركاتهم فى التدريب وكان قائدهم متصبباً بالعرق فى شمس الصباح ويجاهد لإستعادة كرامته أمام النساء اللاتى يسخرن منه .

كان (آلاك) مذعوراً ووحيداً مع حوضه المائى وأسماكه الكهربائىة لا يستطيع إيقاف الهتافات والأغانى التى تندد به وتحط من قدره ولم أستطع أن أفهم رفضه التسليم بمطالب النساء فقلت لنفسى : ربما كان عبداً لضابط المقاطعة الحالى أو لذلك الحقير الذى كان قبله !!

كانت السيدة (كوتى) ورفيقاتها قد عرفن تماماً بأنه لاشئ يمكن الحصول عليه من خلال الاجتماعات والمناقشات مع القصر فاند لعت حرب الإرادة والتصمصم ورحن يتصرفن بطريقة أخرى قد تثمر بعض النتائج ولسوء حظى لم أستطع أن أتبين تماماً تلك الطريقة الأخرى .

بعث كبار الأجبونى برسالة إلى السيدة (كوتى) تقول نحن أبناء * Majeobaje لا نستطيع أن نرى الأشياء وهى تتطور إلى الأسوأ دون أن نفعل شيئاً .. سوف تصيبك الدهشة عندما تعرفين أننا نقف إلى جواركن .. لقد أعدنا قائمة بطلبات النساء .

أثناء الغداء فى اليوم التالى أخبرت المسيحية المتوحشة إسحق بما قالوه

* جماعة تؤمن بالسلام ولا تترك الأشياء تصل إلى حد الحرب .

وكان الغذاء الأول الذى يجمعنا منذ أيام عديدة وربما أسابيع عديدة .

قالت ماما : كانوا غاية فى اللطف ولم يطلبوا منا أن نعتذر عن معاملتنا القاسية لهم لكنهم قاموا بتحذيرنا مما قد نصل إليه وقالوا لنا بأنهم لم يندهشوا .

وأضافت ماما : قالوا أشياء كثيرة وغريبة وكان أهم ما قالوه أنهم لن يتركوا الخراب يسود «إيجبالاند» ولن يسمحوا لنا بإتلاف أى شئ .

واصلت المسيحية المتوحشة حديثها مع إسحق تلك الليلة مدة طويلة .. كانا يتحدثان بصوت منخفض ولم أكن أعرف أن أمى تعاني المرض وأن رأسها يعاني إضطراباً شديداً .

إقتربت قليلاً لأستمع فعرفت أن الأجبوني قوم لا يبالون وأنهم كثيرو النسيان وإذا كانوا حقيقة قد تنبأوا بكل شئ وعرفوا كل شئ كما قالوا فلماذا لم يسارعوا بالحل ويساندوا النساء ؟

لم أستطع أن أصدق ادعاءات الأجبوني بأنهم يعلمون الغيب .

- كانت الاضطرابات ما تزال مستمرة حين إستدعوني للمقابلة مرة أخرى لإمتحانات كلية الحكومة فراح إسحق يتابعنى بلا شفقة .. قلت له كى يطمئن : لا تقلق سوف إحصل على المنحة الدراسية هذه المرة .. إننى متأكد من حصولى عليها .

ويخنى لتلك الثقة المبالغ فيها ولم أعرف كيف أفسر له أن ما أريده يصبح

مؤكداً بطريقة ما .. كان حريصاً على أن أظل بالمقعد الأمامى فى المنزل بعد عودته من المدرسة فكننت أجلس وأذاكر دون أى إحساس بأننى إفتقدت شيئاً ذا أهمية .

كان إسحق ينظر إلىّ بعد عودته بومضة من السخرية والأمل ثم يسأل :
كيف تواصل النساء حربهن بدونك ؟

وكننت أجيبه بلا تفكير : أوه .. لاشئ يحدث حتى الآن ولاشئ سيحدث ليومين آخرين .

لم أعرف أبداً لماذا أجيبت هكذا لكننى غالباً ما كنت أقول الصواب .. كنت أملك إحساساً يصيب إسحق بالحيرة .

- بعد إجتماع نهاية الإسيوع فى المدرسة صعدت إلى الطابق العلوى كى أودع (داودو) و(بيير) قبل أن أغادر إلى «أبادان» فى اليوم التالى .. كانوا فى إجتماعاتهم السابقة يغنون نشيدين أحدهما نشيد «إيجبا» الوطنى والآخر «حفظك الله أيها الملك» .. كان الملك هو (آلاك) وليس ذلك القابع فى الجانب الآخر من المحيط فتم إلغاء النشيد الثانى منذ أسابيع عديدة ثم سمعت أنه يتردد مرة ثانية عن طريق مجموعات مستقلة غير رسمية فاعتقدت أنه نوع من تحدى (داودو) لكننى حين سمعت الكلمات عرفت أنها تغيرت .. كانوا يرددون

Kabiyesi,oba on'ike

Ademola K'eran

Omo eran j'ogun ila

Ono ote Lo l'obe

Kabiyesi, baba iran

Kabiyesi o

Kabiyesi oba ´win

Kqbiyesi o*

قلت لنفسى : أوه .. (ألاك) .. يالك من مسكين .. إن هزيمتك مؤكدة .

عندما صعدت السلالم كانت (بيير) تتحدث فى التليفون الذي كان أحد أربع تليفونات فى «أبيوكوتا» كلها .. كانت تتحدث بغضب ولم أشاهدها من قبل بمثل هذه الثورة والغضب .

كانت تقول : كنتم مجبرين على إسقاطها فوق اليابان .. أليس كذلك ؟

* الملك الأحذب

أديمولا تتحمل المتاعب

إبن الحيوان الذى يرث أوكرو

إبن المؤامرة الذى يستولى على إناء الشورية

والد الحيوانات والبهائم

الملك الخشبى .

.. لماذا لم تسقطوها فوق ألمانيا ؟ .. أخبرنى على سؤالى إذا كنت تستطيع

.. لماذا اليابان وليست ألمانيا ؟

توقفت قليلاً وهى تسمع إجابة الطرف الآخر على التليفون ثم ضحكت بأسى وقالت بصوت تملؤه المرارة : أنت تعرف تماماً لماذا .. لأن الألمان جنس أبيض .. لأنهم أقاربكم أما اليابانيون فهم قوم قذرون ذوو لون أصفر .. هذه هى الحقيقة ولا تنكرها .. لقد قمتم بإسقاط تلك الأسلحة غير الإنسانية فوق قوم إنسانين وفوق أكثر المدن كثافة بالسكان .

كانت تسمع الرد حين إزداد غضبها وانفجرت قائلة : نعم .. أنتم تجيدون تماماً ما تفعلون وتدينون أنفسكم أمام العالم .. كان بمقدروكم إسقاطها فوق أحد الجبال أو فى البحر .. إننى أعرفكم .. أعرف العقلية البيضاء .. نحن الأفارقة واليابانيون والصينيون فى أذهانكم قوم لا قيمة لهم .

سمعت عندئذ ضحكات الطرف الآخر من السماعة الذى تحت طويلاً بينما ظللت أراقب التغييرات المختلفة فوق وجه السيدة (كوتى) التى إستراحت قليلاً وابتسمت ثم توترت فجأة وقطبت عن وجهها وهى تقول : لا .. لم أتصل بك من أجل ذلك وإنما لتبليغ رسالة إلى الذين يسمون أنفسهم بالحلفاء وأنت أحد ممثليهم الأقرباء والآن دعنى أخبرك أن ملككم .. أعنى الموجود هنا .. لا .. لا تقاطعنى فأنا أملك الحق فى التعبير .. إنه ملكاً لكم أنتم وأنتم الذين أنقذتم رأسه .. إستمع لى .. لقد أرسلت لك قائمة بمطالبنا وكان يتراجع فى كل كلمة وكل وعد .. فقط أخبره عما بدر منى إذا لم يكن قد تعلم الدرس من هتلر ..

أخبره بضرورة أن يتعلم الدرس من هتار وأنت كذلك وأيضاً الحكومة الإستعمارية .. توقفت وظلت تستمع مدة أطول ثم هزت أكتافها وقالت : حسناً .. لقد خذرتك .. إلى القاء .

ثم وضعت سماعة التليفون .

إتجهت ناحيتي وحدقت طويلاً وهى تقول " نعم .. أعرف أنك ستغادرننا وتذهب إلى كلية الحكومة .. إنتظر هنا .. عندى شئ لك .

إختفت فى حجرة النوم وعادت بلقافة صغيرة مسطحة كان يبدو أن ما بداخلها قميص لكننى لم أهتم برؤيته لأننى كنت مضطراً للتصحيح حين قلت : لا - لن أغادر وإنما أنا ذاهب فقط للمقابلة فالمدارس لا تبدأ العام الجديد قبل يناير .

فكرت قليلاً وقالت : طبعاً .. ذلك صحيح ولا أعرف كيف أننى لم أنتبه لذلك .. وأذن لا أستطيع أن أقدم لك هذه اللقافة الآن .

سألتها : لنفترض أنهم لم يختارونى بعد كل شئ!؟

إبتسمت وتظاهرت بأنها تفكر : هاأم .. سيكون ذلك صعباً فأنا أحتفظ بهذه اللفة إلى يوم رحيلك .. دعنا نرى .. نعم .. فلنبدأ من البداية .. كم من الوقت ستمضى هناك من أجل هذه المقابلة ؟

* ثلاثة أيام .

قدمت لى ستة بنسات قائلة : إنها لك .. إشتربها شيئاً وإفترض أنت أنهم قبلوك .

أومأت برأسى ثم إستطردت خديتها : رائع .. إذا قبلوك ولم تحصل على المنحة فسوف أعطيك القميص أما إذا حصلت على المنحة فتستطيع أن تخمن ما سوف أقدمه لك .

أجبت بسرعة : زوج من الأحذية .

صاحت قائلة: ماذا ؟

ثم تذكرت وضحكت مستطردة : أوه .. نعم .. زوج من الأحذية .

سألتها فجأة عن سبب غضبها وتوترها بشأن إسقاط القنبلة فوق اليابانيين وأضفت قائلاً : أليسوا هم أصدقاء هتلر ؟

قالت : إن الرجل الأبيض رجل عنصرى وأنت تعرف تاريخك عن تجارة الرقيق .. حسناً .. إن الرجل الأسود بالنسبة لهم إنسان متوحش وعبء ثقيل وكذلك الآسيويون بما فيهم الهنود واليابانيون والصينيون وغيرهم لكنهم يعتبرونهم أفضل منا درجة صغيرة وهكذا كان إسقاط تلك الأسلحة المدمرة فوقهم لايمنى شيئاً بالنسبة للرجل الأبيض لأنهم ليسوا من الجنس الأبيض .. كانوا يجربون أسلحتهم فوق أولئك الملونين وكانهم أغنام .

عاد (داودو) أثناء حديثى مع زوجته ووضع بعض الملفات فوق الرف .. إقترب وصنع لنفسه كوباً من الشاي ثم قال : لن أرسل (كوى) وأخوته إلى

مدرسة يديرها الرجل الأبيض عليك أن تفهم هذا .. ليس فقط بسبب بشرتهم
البيضاء ولكن أيضاً لأنهم مستعمرين .. إنهم يعملون على تدمير شخصية
أولادنا .. تذكر ما قلته لك فى العام الماضى عندما كنت ذاهباً للمقابلة الأولى
.. هل تذكر ؟

* نعم يا عمى .

* حسناً .. هل كنت على صواب أم لا ؟

* لكننى أخبرتك يا عمى أن المدرسة فى أجازة وأنا لا نفعل شيئاً
سوى الاستعداد للمقابلة .

توجه يحديثه إلى (بيير) : هل تعرفين ما إكتشفتة ؟ .. إن أولئك المدرسين
لا يصنعون جيوباً فى بنطلوناتهم !!

أصاب الذعر (بيير) فسألتنى : هل هذا حقيقى ؟
قلت : نعم .

ثم إستطرد (داودو) : الآن .. هل تعرفين .. لماذا يكون فى العالم
شباب يرتدون بنطلونات بدون جيوب ؟

هز رأسه بقلق وأضاف : هل تعرف ؟ إن الرجل الأبيض مخلوق غريب فى
بلده .. إن التلاميذ فى بلدتهم يرتدون الحلل ذات الجيوب فلماذا يأتى أحدهم
إلى هنا كمدير ومسئول عن المدرسة ويمنع الجيوب عن أولاد مدرسته السود ؟
لماذا ؟

فكرت قليلاً ولاحظت شيئاً فى (داودو) و(بيير) .. لم أكن مع كلامهما فى حاجة لأسئلتى الكثيرة فقد كانا دائماً على إستعداد للتحديث معى أو مع أى طفل .. كان (داودو) غالباً ما يطوقنى بذراعه حتى وأنا جالس أقرأ فى هدوء وكان يسألنى عن متابعتى للأخبار الحديثة من لاجوس أو أى مكان آخر وفى حال عدم سماعى أى شئ كان يوبخنى ويهز رأسه قائلاً : يجب أن تهتم بمتابعة الأخبار فلا يكفى أن تضع أنفك فى هذا الكتاب الميت .

كرر القول : لماذا ؟ .. لماذا يمنع المدير الأبيض الجيوب عن بنطلونات أولاد مدرسة الحكومة ؟

قالت (بيير) : ذلك ما كنت أقوله للضابط قبل أن تأتى .. إسقاط القنبلة الذرية فوق هيروشيما وليس ألمانيا البيضاء .. إن كل رجل أبيض هو عنصرى كبير .

تنهد (كوتى) بوقار وكان الحزن مرتسماً فوق وجهه وبدأت أتساءل عن الخطأ فى ذهابى إلى مدرسة الحكومة .

سألنى (داودو) : ماذا عنك الآن .. ما عمرك ؟ كم عمو الآن ؟

أجبت : إحد عشر عاماً .

* حسناً .. سوف تبلغ الحادية عشر والنصف عندما تذهب إليهم فى يناير المقبل ولقد أمضيت عامين فى مدرستنا .. ذلك ما ينبغى التفكير بشأنه على ما أعتقد .. ألا تعتقد أنت كذلك ؟

إتجه ببصره إلى (بيير) طالباً الرأي فقالت مؤكدة : أوه .. نعم .. نعم ..
ولا ننسى أنه ابن (آيو) و(إينيولا) فأعتقد أنه سيكون قادراً على مواجهتهم
هناك .

أشار (داودو) برأسه بابتهاج وقال متحدياً : نعم .. سوف نرى .. إنهم لا
يضرّبون بالعصا إلا قليلاً جداً .. كيف نعلم أولادنا بهذه الطريقة ؟ .. إنهم
أيضاً لا يسمحون بارتداء الأحذية .

أصبحت خائفاً فقلت : عمى .. هل أنت متأكد ؟

قال : بالتأكيد .

ثم ضغط على شفتيه مستطرداً : لا أحذية .. إنهم يتبنون أفكاراً غريبة
فى بناء الشخصية .. لا أحذية إلا للرؤساء .. لماذا تكون سياسة المدرسة هكذا
؟

- لم أعد أهتم وكانت نظراتى تخترق عيني (بيير) التى كانت تلوح
بحاجبيها فى إستهزاء فضحكت كثيراً ولحقتنى (بيير) بضحكاتها .

ظل (داودو) يحدّق فى كلانا متجهماً لمعرفة السبب فى ضحكاتنا .

قالت (بيير) بصوت منخفض متعجبة : لا أحذية !؟

ثم قلت متتهدياً : لا أحذية !!

وفكرت فى عمرى .. إحد عشر عاماً .. إحد عشر عاماً .

كان الوقت مناسباً لبدء مرحلة عقلية جديدة بالدخول إلى عالم آخر غير
معقول .. عالم من المراهقين البالغين سن الرشد

« تمت »

رقم الايداع

١٩٩١/٩٧٨٣

I.S.B.N.

977-208-071-0

مطبعة اطلس



imprimerie atlas

LE CAIRE: 11-13 RUE SOUK EL TEWFIKIEH, R.C.100731, TEL: 747797

القاهرة: ١١، ١٣ شارع سوق التوفيقية من ١٠، ١٣، ١١ ت ٧٤٧٧٩٧